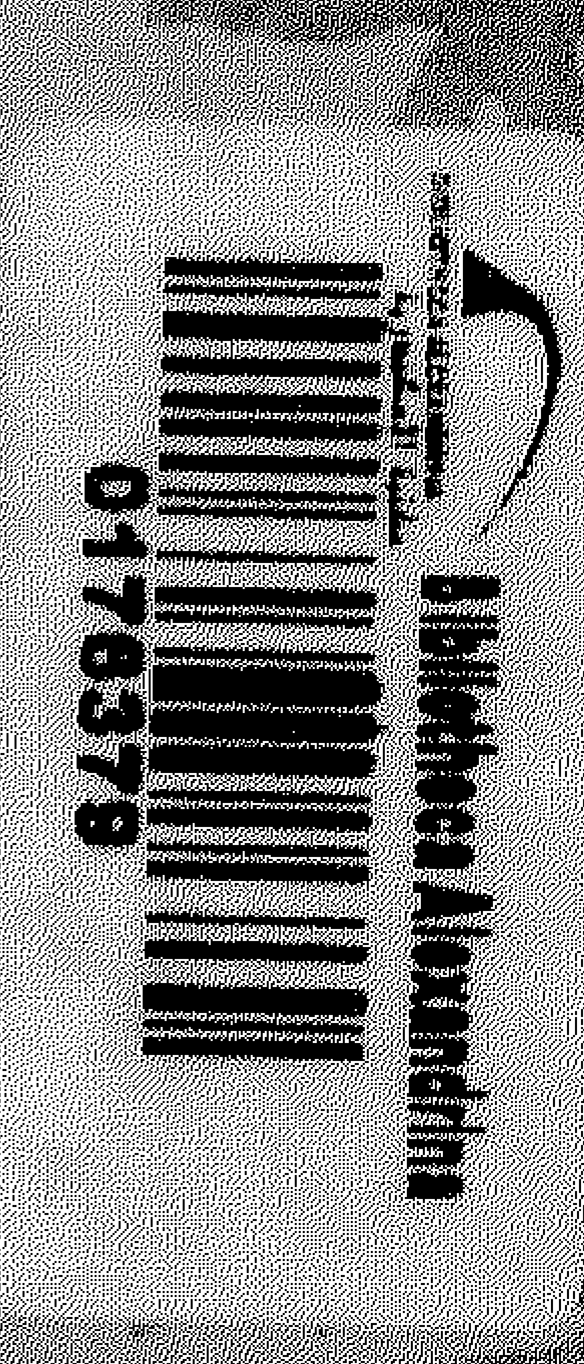
الإسلام والمسلمون
في الاتحاد السوفيتي



اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمود دياب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

الاسلام والمسلمون
فى الاتحاد السوفيتي

تأليف
يوسف صديق

الاهـــداء

إلى أرواح الذين سقطوا فى المعارك ليزيدوا من أرباح تجار الحروب .

إلى كل إنسان ضللوه بزخرف القول فحمل السلاح وراح يقتل نفسه أو يقتل أخاه الإنسان . لصالح الشيطان .

إلى الذين قالوا : ربنا الله : ثم استقاموا .

يوسف صديق

٢٧/٨/١٩٧٢ .

مقدمة

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى ـ كان المنتصرون جميعا من الدول الرأسمالية ـ وكانت البشرية قد اكتوت بنيرانها وويلاتها ما جعلها تفكر في وضع نهاية للحرب رفقا بالانسانية والحضارة ـ فأنشأت منظمة عالمية وكل اليهاهذا العمل ، وهى التى عرفت باسم «عصبة الأمم» •

ولما كان عبء الحرب يقع بكامله على أكتاف الدول الصغيرة المستعمرة المغلوبة على أمرها فلم يمض ربع قرن الا وكانت أطماع الدول الرأسمالية قد تحركت والهبت نيران حرب جديدة •

وكانت الحرب العالمية الثانية أشد فتكا وتدميرا غير انها انتهت نهاية مخالفة ـ فقد كان بين المنتصرين عنصر جديد هو « الاتحاد السوفييتى » رافع لواء الاشتراكية ـ المذهب الجديد الذى يقوم على (عدالة التوزيع) واحلال التعاون والحب بين الشعوب محل التنافس والتناحر ـ وينادى بانتشار السلام على الأرض • ويرفض الاستغلال الذى هو الحجر الأساسى فى صرح الرأسمالية •

وأحست الرأسمالية منذ اللحظة الأولى لقيام الدولة الاشتراكية الأولى على الأرض بخطورتها عليها فحاصرتها ، وحاولت القضاء عليها فى مهدها • ولكن لما كانت الاشتراكية تحمل بين طياتها أسباب النجاح والبقاء فقد نجحت فى طرد خصومها وبقيت لتنقذ البشرية من الرق والعبودية •

ورغم حداثة سن الاشتراكية عند اندلاع نيران الحرب الثانية الا أن قهر النازية لم يكن ممكنا بدونها • ورغم الخلاف والتناقض العقائدى فقد تم التحالف الذى عبر عنه « تشرشل » (بالتحالف مع الشيطان) •

وتحقق ما كانت تخشاه الرأسمالية من خطورة الاشتراكية عليها ، فقد خرج الاتحاد السوفييتى من الحرب أشد بأسا وأعظم قوة • وكانت الحرب فرصة طيبة لاثبات سلامة المذهب الاشتراكى وأفضليته • وبشرت

بأن المجتمع الاشتراكى هو الثوب الجديد الذى لابد للعالم أن يستقبل به القرن الحادى والعشرين ·

وأعادت الانسانية الدامية انشاء منظمة تحل محـــل عصـبة الأمم لتحول دون تكرار مأساة الحرب ، فأنشأت « هيئة الأمم المتحدة » · فكان لوجود الاتحاد السوفييتى القوى كعضو فيها أثره البالغ فى اندلاع حرب التحرر الوطنى فى كافة أنحاء العالم · ولقد وجـــدت الدول المستعمرة المغلوبة على أمرها فى الاتحاد السوفييتى سندا ونصيرا مكنهـــا من طرد الاستعمار · ورفعت الأمم المتحدة شعار « تصفية الاستعمار » وعملت على تحقيقه · ورأت الدول المتحررة فى الاشتراكية الطريق الوحيد لتعويض التخلف الذى فرضه عليها الاستعمار · واتسعت رقعة الاشتراكية عـلى حساب الرأسمالية ·

وفى معركة الحياة والموت لا تستسلم الرأسمالية ·

والرأسمالية فى محاولة دائبـــة لتأليب الشعوب عـلى الاشتراكية ومحاولة محاصرتها بأحلاف عسكرية لعزلها عن العالم · غير أن الحق فى الاشتراكية كان أقوى من الأحلاف ونفذ اشعاعه الى الشعوب فى أفريقيـا وأمريكا اللاتينية فتحقق التحرر لكثـــير من الشـــعوب ، وقامت دول اشتراكية فى أكثر من مكان وراء الأحلاف ·

ولكى تجذب الرأسمالية الشعوب الى أحـلافها ، تستخـــدم أحقر الوسائل وأحطها لخداع هذه الشعوب ، وتقـوم بحملة دعايات مسمومة لتشوه الاشتراكية فى نظرها ·

وفى منطقة الشرق الأوسط ــ مهد الاسلام ــ ضربت الرأسمالية على الوتر الحساس ، فراحت تروج الدعايات عن مجافاة الاشتراكية للدين واضطهادها له ، وعملها على تقويضه ·

وقد تناول أكثر من كاتب ممن أتيحت لهم فرصة الذهاب الى الاتحاد السوفييتى ومعاينة الواقع هناك وسجلوا مشاهداتهم وانطبـــاعاتهم التى تدين كلها هذه الدعايات وتكذبها بالوقائع ·

وعندما أتيحت لى فرصة الذهاب الى الاتحاد السوفييتى فى صيف سنة ١٩٧٠ والاطلاع على أحوال المسلمين هناك ودراستها دراسة الملهـوف

لمعرفة الحقيقة ، وعدت أحمل هدية فاخرة عبارة عن مصحف وسجل مصور للآثار الاسلامية فى الاتحاد السوفييتى ، أحسست بأن المكتبة العربية لا زالت فى حاجة الى الكتاب الذى ينصف الاشتراكية ٠

ان المجتمع الاسلامى فى الاتحاد السوفييتى الذى لا يعرف فقراء وكل مستحق للزكاة فوجه أموال الزكاة لرفع مستوى المجموع واعانة المجتمعات الاسلامية فى بلاد أخرى يستحق أن يبذل فى سبيل اظهاره للناس جهدا أرجو أن أكون قد وفقت الى بعضه ، وأن يكون هذا الكتاب بداية موفقة لغيره من الكتب التى توفى هذا الموضوع حقه ٠ والله ولى التوفيق ٠

١٩٧٢/٨/٢٧ يوسف صديق

الفصل الأول

فيما قبل الثورة الاشتراكية

من بين عشرات الأديان التى تتواجد فى بلاد شاسعة الأطراف وتمثل سدس مساحة اليابسة من العالم مثل الاتحاد السوفيتى ، يحتل الاسلام المركز الثانى بعد المسيحية ، من ناحية عدد المؤمنين به ، والذين يصل عددهم الى حوالى ٤٠ مليونا من السكان ٠

وينتشر المسلمون فى جميع أرجاء البلاد ، وان كانت أغلبيتهم تعيش فى رقعة واسعة من أراضى السهول فى مناطق آسيا الوسطى ، وفى تلال سفوح جبال القوقاز وجبال البامير ، وفى روسيا الوسطى على ضفاف نهر الفولجا ٠ ومع ذلك فانه توجد الجماعات الاسلامية فى المدن الروسية الكبرى مثل موسكو ، ولنينجراد ، وجوركى وبنزا ، وكويبيشيف وراستوف على نهر الدون ٠

كما أنه من بين عديد القوميات التى يتضمنها الاتحاد السوفيتى ، ينتشر الاسلام بين قوميات آسيا الوسطى وهى الأوزبك والقرغيز والكازاخ والتركمان والتاجيكيون ، وبين التتر والباشكير من شعوب حوض الفولجا ، والأذربيجانيون فى منطقة ما وراء القوقاز ، والداغستانيون وعدد آخر من الأقوام فى القوقاز الشمالى ٠

ولا يمكن أن يصل الاسلام الى هذا الانتشار سواء من ناحية عدد المؤمنين ، أو اتساع الرقعة التى يمثل فيها العقيدة الأولى رغم ما نعرفه فى شأن الدعوات الدينية عامة من ازدهار فى بعض العصور ، والضغط فى عصور أخرى ، وتعرض المؤمنين للبطش فى عديد من صوره ومظاهره فى أوقات معينة ، ونجاحهم فى بث دعوتهم والحفاظ عليها فى أوقات أخرى ٠٠ لا يمكن أن يحقق الاسلام هذا الانتشار ، الا اذا كان وراء ذلك تاريخ من الممارسة الحقة للعقيدة بدأ منذ الأيام الأولى للدعوة المحمدية ٠

ولربما أن استعراضا سريعا لتاريخ الاسلام فى الاتحاد السوفيتى حتى عشية الثورة الاشتراكية يبرز الواقع الذى عايشه المسلمون فيه ٠

شمس الاسلام تشرق

كانت للصلات التجارية ، ورحلات القوافل المستمرة بين بلاد آسيا الوسطى والبلاد العربية وفارس أثره فى لفت أنظار المسلمين الى نشر دعوتهم بين تلك الأقوام ٠ وبعد أن انتشر الاسلام فى بلاد الفرس ، وفى عامى ٥٥ ، ٥٦ هجرية أوفد الخليفة **معاوية بن أبى سفيان** قواته تحت قيادة **سعيد بن عثمان** لفتح البلاد ونشر الدين الاسلامى ٠ وتم له النصر

عندئذ على أقوام السفد وساك القـــديمة ، واستشهد فى تلـك الحروب **قثم بن عباس** ابن عم الرسول صـلى الله عليه وســـلم ، الذى دفن فى سمرقند ، وما زال قبره مزارا للمسلمين جميعا هناك ، الى درجة أنه من التقاليد المعتادة حتى اليوم أن تزوره كل عروس تبركا قبل الزواج • كما استشهد مع ابن عم الرسول مريده وتابعـــه **ابن حصيب ، والقيس بن عاصم** ودفنوا فى نفس المدينة •

وقد تابع الخلفاء الأمويون ارسال الجند الى تلك البلاد ــ والتى كانت تسمى ما وراء النهر ــ للدعوة للديانة الاسلامية ، وتعليم القرآن واللغـة العربية ، وفى عهد **عبد الملك بن مروان** أرســل **قتيبة بن مسلم** قـــائدا ومعلما فنجح فى رسالته أيما نجاح الى أن وصل فى نشر الدعوة الى حدود الصين • ورأسى الحكم الاسلامى فى كل البلاد ، واستتب بجهاده النظـام الى أن توفى ودفن فى بلدة فرغانة •

وتطور الاسلام بأراضى أذربيجان حديثة تطورا كبيرا ، ولكن عندما التبعية للخلافة العربية فى القرن السادس عشر ، نشأ عدد من الدويلات المستقلة مثل دولة الأبابيكيين ايلديكنريين ، ودولة الشيروان شـــاهين وغيرها • وظلت فى مجملها دولة اسلامية حتى القرن السابع عشر الميلادى عندما استولى عليها القيصر وضمها الى أملاكه •

أما القوميات التى كانت تقطن ضفاف نهر الفولجا ، فقد دعا أميرها عددا من علماء المسلمين فى عهد الخليفة **المعتصم بالله** فى القـــــرن الرابع الهجرى لزيارة البلاد • وبعد الاستماع الى دعوتهم أسلم على يديهم كمـا أسلم قومه ، وبقى عديد من هؤلاء العلماء لتعليم الدين الاسلامى والقرآن الكريم •

وعليه فقد مضى على دخول الاسلام فى تلك البلاد ألف عـــام على الأقل ، وأتيح له خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمان أن يزدهر ، كمـــا مرت عليه أوقات لاقى فيها من العنت والاضطهاد الشىء الكثير • ولكن ما كان لأى عقيدة أن تعيش طوال هذا الزمن معتمدة على المصـــادر الفكرية الخارجية فحسب ، بل لابد أن يكون قد بزغ من بين أبناء تلك المناطق من أثروا العقيدة بجهودهم ، ومن ثم أتاحوا لجـــذورها أن تضرب فى هـــذا المنبت ، وأن يعلو صرحها عاليا بين تلك الأقوام •

فالواقع أن تلك الأجزاء من الاتحاد السوفيتي التي دخل الاسلام اليها قد أنجبت أعدادا من الفقهاء والأئمة الذين مضى ذكرهم عبر التاريخ – ويظل يمضي – ما يندر أن تجد مثيلا له بين عديد من دول المسلمين وبلادهم ٠

ولا نعتقد أن مسلما فى العالم أجمع يجهل صحيح البخارى الذى يعتبر حتى اليوم المرجع الأول فى الحديث الشريف ٠ لقد ولد صاحبه الامام **محمد بن اسماعيل البخارى** فى بخارى عام ١٩٤ هجرية حيث درس علوم عصره وخاصة ما أتيح له من الحديث الشريف ٠ ولكنه خرج من بخارى حاجا تصحبه أمه وأخوه حيث توفي الأخير فى مكة المكرمة ٠ وبينما رجعت أمه الى وطنها ، بقي هو فى المدينة المنورة وشرع فى تأليف كتابه « **الجامع الصحيح** » بين القبر وروضة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتمه على مدى ١٦ عاما ، ثم عاد الى بلاده ، ومعه هذه الثروة الواسعة من الحديث وتفسيره على يد علماء الحرمين الشريفين ٠ وقام على التدريس ببلاده حتى ذهبت الأقوال بأنه قد بلغ عدد من تلقوا منه الحديث الشريف تسعين ألف شخص ٠ وقد تتلمذ على يديه العديد من العلماء المشهورين فى منطقة ما وراء النهر قد يذكر منهم الامام **الترمذى وأبو الهيثم كليب الشاشي** (نسبة الى طشقند) ٠ وأدى جهده الكبير هذا الى أن ينتشر فى تلك المنطقة العديد من الكتاب فى الحديث وتفسيره ، ونقد رواته ، وتصحيح الرواية٠ وهكذا ٠

والمسلمون فى بقاع الأرض يعرفون كذلك الحاج **محمد بهاء الدين النقشبندى** ، الذى ولد فى قرية قصر عرينون ، ودرس فى بخارى ، وحج مرتين الى مكة المكرمة والمدينة ٠ والذى أسس اتجاها جديدا ، وطريقة فى العبادة أمكن أن تجذب اليها العديد من المريدين والأتباع فى آسيا الوسطى وتركيا والبلدان العربية والهندستان وأندونيسيا ٠

أما الحكيم **الترمذى** فصاحب عدد من الكتب الدينية الهامة ، من بينها كتابه المشهور « **نوادر الأصول** » ٠

أما سميه **ابو عيسى محمد بن عيسى الترمذى** فمحقق مشهور للحديث ، ومؤلف كتاب « **الجامع** » الشهير ، ويعتبره المسلمون فى بقاع

الأرض كلها أقرب مفسرى الحديث الى محمد بن اسماعيل البخارى ٠

ومن بين أبناء تلك المناطق **سعيد على الهمزانى** مؤلف العديد من الكتب الدينية والتى يلاقى منها كتابيه « **روضة الفاتحية** » ، « **تهافت الملوك** » أوسع الانتشار وكثير الرواج بين الدارسين فى حقول المعرفة الاسلامية ٠

وسوف يمضى بنا الحديث طويلا اذا ما نحن عددنا كل العلماء الجهابذة الذين أنجبتهم تلك البلاد ٠ فالكتابة عنهم وعن انجازاتهم العلمية فى مجال العقيدة الاسلامية انما تحتاج الى مجلدات عديدة ٠ ولكن قد نضيف الى من سبق ذكرهم علماء آخرون لهم شهرتهم وقدرهم المعلى مثل **الامام أبو حفص الكبير البخارى** وكتابه عن الفقه الحنفى ، **وعلى بن أبى بكر برهان الدين المرغيثانى** صاحب كتاب الهداية فى الفقه الحنفى ، **وعبد الله بن مبارك المروزى** ذو المؤلفات العديدة **فى الفقه والحديث** ، **ومحمد بن بشار اليتكنى وعهد بن حميد الكيشى ، وأبو البركات النسفى** مؤلف « **مدارك التنزيل** » والامام **الزمخشرى** مؤلف « **الكشاف** » **وأبو الليث السمرقندى ، والامام الزاهد السمرقندى** ٠

ولم يقتصر الجهد على كتب الحديث والفقه بل امتد الى اللغة العربية ذاتها ، حيث برز من أبناء تلك المناطق العديد من العلماء فى هذا المجال ، لعل من أهمهم **أبو بكر محمد بن اسماعيل** المشهور بالقفال الشاشى (أى الطشقندى نسبة الى طشقند) الذى لا يزال قبره حتى اليوم من قبل الوفود العديدة من أنحاء العالم الاسلامى والعربى ، وما زال العلماءيعلقون الشروح والحواشى على كتبه وانجازاته العلمية ٠

وكان من أثر انتشار تعاليم الاسلام والحرص على الصلة بالبلاد العربية مهبط الرسالة السماوية ، أن انتشرت فى تلك البلاد كثير من الفاظ اللغة العربية خاصة تلك التى ترتبط بمعانى اسلامة فتراهم هناك وحتى اليوم ٠ ينطقون العديد من الكلمات العربية ويستعملونها مثل عيد الفطر وعيد الأضحى والصدقات ومولد النبى وليلة القدر وقارىء بمعنى مقرىء مجيد للقرآن ، وحافظ بمعنى من حفظ القرآن وأجاده ، وقاضى ويقصد به المأذون أو رجل الشرع فى المنطقة ــ وهكذا ٠

لقد أنجبت مناطق آسيا الوسطى والقوقاز والفولجا ــ بالاضافة الى

أئمة العقيدة المذكورين — علماء وفلاسفة وفلكيون وأطباء وشعراء طبقت شهرتهم الآفاق مثل **النظامى** ، **والخوارزمى** ، **والفارابى** ، **والفردوسى وابن سيناء** ، **وأولوج بيك** ، **وفيزولى** ، **وناصر خسرو** ، **وعمر الخيام** ، **ونفوا** ، **وتوسى** وغيرهم عديدون • فقد كان **أبو بكر بن محمد زكريا الرازى** أول من ألف فى الطب كتابه المشهور « **الحاوى** » والذى يقع فى أربعين مجلدا • وكذلك كتابه عن « **الأغذية** » • **أما أبو على بن حسين الشهير بابن سيناء** فقط ترجم كتابه « **القانون فى الطب** » الى جميع اللغات الرئيسية فى العالم • ذلك بالاضافة الى أبحاث **أبو الريحان البيرونى** فى الفلك والرياضيات والجغرافيا • مؤلفات هؤلاء جميعا لم ينقص قدرها أو أهميتها حتى يومنا هذا رغم التقدم العلمى العظيم ، وما زالت تدرس باهتمام بالغ فى عديد من المؤسسات العلمية فى العالم •

العقيدة تزدهر تحت ظلال الحرية

لعل تلك الواقعة التى أوردناها من دعوة أمير مناطق الفولجا لعلماء الاسلام والاستماع اليهم ثم الايمان بما أتوا به دليل حى على جو الحرية — حرية الكلمة والعقيدة — الذى صاحب الفترات الأولى لانتشار الاسلام فى تلك البلاد البعيدة • والذى كان من آثاره تلك النهضة الواسعة فى العلوم الدينية والدنيوية عامة ، والتى أثمرت هؤلاء القدماء الفطاحل فى علوم الفقه والحديث ، أو علوم الطب والكيمياء والفلك والرياضيات والفلسفة والشعر •

ولكن المناطق التى يسكنها المسلمون فى الاتحاد السوفيتى كانت بحكم موقعها الجغرافى مطمعا للعديد من الفاتحين • فآسيا الوسطى كانت الطريق الى الشرق والهند والصين • كما أن القوقاز هو معبر بلاد روسيا الباردة الى الجنوب الدافىء • وتمثل مناطق الفولجا واحدة من أهم مناطق الثروة الطبيعية فى شرق أوربا • ولهذه الأسباب فلم يكن ممكنا أن تظل الدول الاسلامية التى أقيمت فى تلك البلاد على قوتها الأولى ، خاصة وقد لعب ضعف الخلافة الاسلامية دورا كبيرا فى تفكك أوصال الامبراطورية الاسلامية وتحويلها الى عديد من الدويلات الضعيفة •

ولذلك فقد تعاقب على آسيا السطى عديد من الدول مثل سوفديان وبشكيريا ، ثم الفرس ، فالاسكندر الأكبر ، يتلوه الأتراك ، ثم فى النهاية العرب عند دخول الاسلام • وبدأ حلول الظلام على تلك البلاد بهجوم

جيوش التتار بقيادة جنكيز خان الذى أعمل وقومه الدمار والنهب حيثما حلت جيوشهم • اذ خربت عشرات المدن ، وأخضعت بحد السيف أعدادا كبيرة من المؤمنين ودمرت المئات من المعابد المقدسة ، وعزمت على تدمير مدينة بخارى برمتها •

ولربما أن عصر تيمورلنك كان فيما بعد عصرا من الازدهار وبلوغ الاسلام كامل قوته هناك • ولكن قسوته واضطهاده للشعب من ناحية ، ووقوع السلطة فى يد الجهلاء الذين يمثلون القوة الغاشمة أدى فيما بعد الى توقف الازدهار فى كل العلوم والفنون ، الى حد أن يقتل المتآمرون عالما مشهورا هو أولوج بيك مؤسس أكبر مرصد فلكى فى العالم فى ذلك الوقت • وقد استمر حكم التيموريين فى آسيا الوسطى لفترة طويلة ، ولكن ظلت الدولة فى اضمحلال •

وصارت آسيا الوسطى التى تمزقت أوصالها بعد ذلك الى امارات عديدة ، مسرحا لحروب طاحنة ومنازعات شديدة عانى منها الدين الأمرين• وأخذ كل أمير مدفوعا بصالحه الشخصى ينهب الشعب ويعمل على ابادته • واتسع نطاق النزاع القومى والاضطهاد الدينى واتخذ صورة مروعة الى درجة أن يقسم مثلا الأمير امام كولى عند فتح طشقند أنه سيستمر فى وحشيته حتى تبلغ دماء سكان المدينة ركاب سرجة •

وفى النهاية وقعت آسيا الوسطى تحت حكم القيصرية •

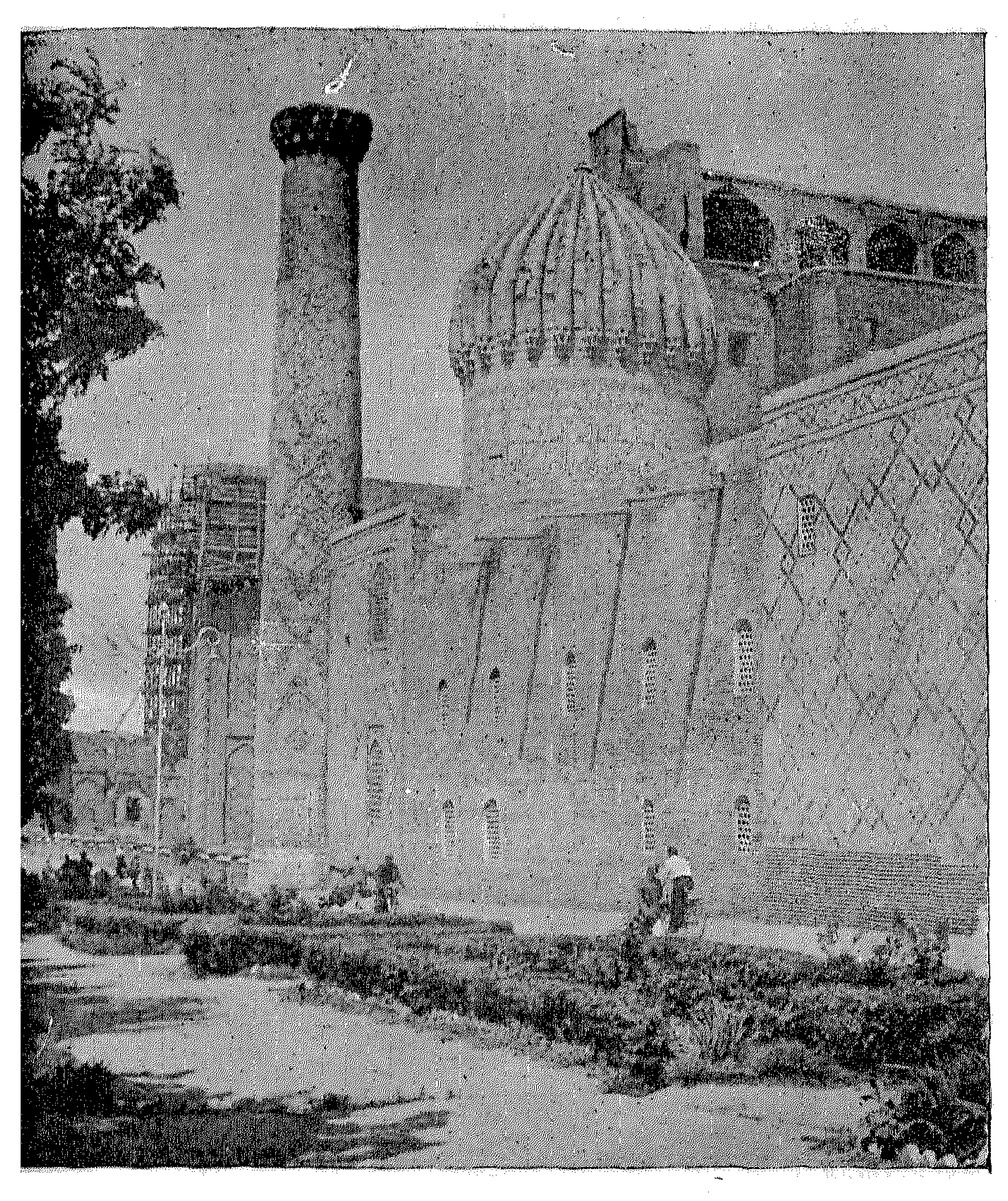
أما أذربيجان ، تلك الدولة العريقة والتى استطاعت أن تعقد اتفاقا سياسيا ومعاهدة عدم اعتداء مع الاسكندر الاكبر ، فقد دخلها العرب كما سبق أن أشرنا فى القرن السابع الميلادى ، وتكونت بها دولة اسلامية سرعان ما ارتبطت بعد ذلك بالحكم الاسلامى فى بلاد فارس وان ظل لها استقلالها • ولكن ضعف الخلافة الاسلامية بعد ذلك أدى الى تفتت تلك الدولة الى عدد من الدويلات والامارات الصغيرة الأمر الذى جعله شيئا ميسورا أن تستولى عليها روسيا القيصرية وتفرض سلطانها عليها فى عام ١٧٢٣ ميلادية •

الاسلام فى ظل القيصرية

وقعت كل المناطق الاسلامية تحت حكم القيصر ، وقد كانت عندئذ دولا مضمحلة أو امارات متحاربة مفتتة • وبالتالى استطاعت القيصرية أن



جمال عبد الناصر يؤدى الصلاة فى جامع موسكو



مدرسة « شير دور » – بسمرقند – وتسمى بمدرسة الأسود وذلك نظرآ لرسوم الحيوانات الخيالية المنقوشة على بابها الرئيسى

تفرض سلطانها كاملا على تلك البلاد ، وأن تجعل منها مجرد دويلات توابع خاضعة للدولة الروسية الكبرى وفى حكم مستعمراتها ٠

وقد كان النظام القيصرى يستند الى الكنيسة الأرثوذكسية مما جعلها فى وضع امتياز خاص ، تعمل الدولة على حماية مصالحها ، وتنفق الأموال الطائلة لتدعيمها ، وتعاونها قدر الاستطاعة فى محاربة الديانات الأخرى وعلى الأخص الاسلام واليهودية والبوذية ٠ وأصبح الطريق الى مناصب أجهزة الدولة سواء العليا منها أو الثانوية ، والى المدارس الحكومية بهدف التعليم ، مسدودا أمام غير الأورثوذكس ٠ وانتشرت ملاحقة الأفراد على أساس دينى ٠ وبلغ من سلطان الكنيسة أن لم تقتصر الملاحقات على أتباع الديانات الأخرى ، بل على كل من رفض أى طقوس أو قواعد تفرضها الكنيسة الاورثوذكسية ، الى درجة أن يعتبروا هراطقة ويساموا أشد أنواع العذاب ٠ ولعل المثال على ذلك واضح فى طائفة ما زالت تسمى حتى اليوم فى كندا « دوخوبورى » من الذين اضطر آباؤهم فى مطلع هذا القرن الى مغادرة روسيا بسبب الاضطهادات الدينية ٠

ولأن الحكم فى جوهره كان حكما استعماريا هدفه تسخير الشعوب المستعبدة لصالح السلطة المستعمرة ، فقد كان نصيب القوميات التى تعتنق الاسلام هو الاستغلال الاقتصادى والتأخر الاجتماعى والقومى ٠ وسار الاستغلال الاقتصادى جنبا الى جنب مع مختلف مظاهر التأخر ٠ ولأن من سياسة الاستعمار دائما أن « فرق تسد » فقد سعت الادارة القيصرية الى بذر المنازعات بين الشعوب المسلمة ، واجتهدت فى أن تثير الشقاق العميق بين الشيعة والسنة ٠

ويمكن أن يذكر على سبيل المثال سياسة القيصر تجاه التتار ٠ فقد أجبر مئات الألوف منهم على اعتناق المسيحية سواء بالقوة أو التهديد أو الخداع أو الضغط الاقتصادى ٠ وحرم على المسيحيين منهم أن يعيشوا فى نفس المناطق التى يعيش فيها التتار المسلمون ٠ وبينما كان المسلمون منهم يستعملون الأبجدية العربية ، فرض على المسيحيين استعمال الأبجدية الروسية ٠ وكانت نتيجة ذلك وغيره أن تدعمت الفوارق فى طريقة الحياة والعادات بين قسمى التتار ، المسيحى والمسلم ، على مدى السنوات ، لا لصالح القومية ، ولكن فى صالح الحكم القيصرى ٠

ولم يكن الاسلام والمسلمون فى آسيا الوسطى أسعد حظا من التتار فقد حولت القيصرية بلادهم الى مستعمرة داخلية ٠ تطأ فيها حقوق وعادات الشعب ، وتنظر اليه على أنه شعب من الدرجة الثانيـــة ٠ ولم تتحقق له حرية الضمير طوال الحكم القيصرى ، فقد وضعت المدارس تحت رقـــابة صارمة وحرم فيها تدريس أى علوم دينية ٠ كما روقبت بشدة كل الجوامع وأماكن العبادة وذهبت القيصرية الى أبعد من ذلك اذ سعت فى كل المراكز الدينية الاسلامية فى بخارى وسمرقند وكوكند ، لافراغ الدين من كـــل دعوة الى الاحساس القومى ، وأن توقع بينه وبين كل دعوة تقدمية فى ذلك الحين ٠ ويقول المفتى الحالى **ضياء الدين خان بن ايشان بابا خان** فى مقدمته لكتاب اسماعيل البخارى « **الأدب المفرد** » أن نظره الى تاريخ المسلمين فى آسيا الوسطى خلال القرون الثلاثة الاخيرة توضح أن الاسلام صار أداة فى يد أمراء الاقطاع الأغنياء بحيث قد حولوا الدين الى أداة لفرض ســـلطانهم وللكسب ٠ وتحول عدد من رجال الدين الى أدوات طيعة فى أيديهم ٠ لقد ساعد هؤلاء على نشر اتجاه الغزالى الى حد أن تناسوا القرآن والحديث ، ودعموا الانقسام بين المؤمنين الى درجة أن المسلمين هناك كانوا ينظرون الى أتباع مدارس مذهب السنيين (فيما عدا الحنفيين) كهراطقة ٠ وظهرت دعوات الى أنه لا مجال لأى تفسير أو اجتهاد فى القرآن ، وأن الباحثين القدامى قد أوفوا كل شىء حقه ، وما على المسلمين الا أن يقرأوا ما كتب الأوائل وأن يحفظوه فحسب ٠

وتطرفوا فى دعوتهم تلك الى درجة الاتهام بكل أنواع الذنوب لأى مسلم اتجه ــ تحت ضغط الظروف التى يعيشها من قهر وارهـــاب ــ الى دراسة المعانى التى يفرضها القرآن والحديث للحياة ٠

* * *

هذا استعراض سريع لدخول الاسلام أراضى الاتحاد الســوفيتى ، والذى يرجع الى عهد الخلفاء الراشدين الأول والصحابة ، ثم تطوره فى تلك البلاد ٠ والذى يمكن أن يلاحظ منه أن الاسلام قد شاهد هناك نفس ما شاهده فى معظم البلاد الاسلامية على مر العصور من ازدهار على يد العديد من الباحثين والمدققين فى أجواء من الحرية والســـماحة التى يدعو اليها الدين ٠ كما تعرض الى التأخر والاضطهاد والملاحقـــة حيث ضعف شمل

المسلمين وتفرقت كلمتهم وسيطر عليهم المستعمر ، يسخرهم لصالحه ، ويضرب على كل دعوة الى الحرية ، وكل تطلع الى الاستقلال القومى ، ملاحقا الدعوة الدينية ذاتها كلما كان فيها ما يزكى هذه المشاعر •

* * *

واذا كانت ظروف روسيا القيصرية قد وصلت بالمسلمين الى الحد الذى أوجزنا الاشارة اليه ، فماذا كان موقفهم من الثورة الاشتراكية ، وما الذى كان عليه موقفها منه • ذلك ما نرجو الاجابة عليه فى الفصول التالية •

الفصل الثاني

المسلمون والثورة الاشتراكية

ظروف تهييء للثورة

لقد دمغ التاريخ حكم قياصرة الروسيا بكونه أسوأ أنواع الحكم الذى شهدته بلاد أوربا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين • ولقد ساعد على ذلك طبيعة الحكم القيصرى ذاتها • فقد كان حكما أوتوقراطيا لا يمارس أى شكل من أشكال الديمقراطية ، كما فعلت بلاد أوربا الغربية ، بحيث يخفى مظهر الحرية أوجه الاستغلال الداخلى الذى تقع تحته جماهيرها العاملة • ولم يكن للروسيا من المستعمرات ما يتيح امتصاص دماء شعوبها بالقدر الذى يساعد على رشوة الطبقات العاملة فى الداخل ، كما فعلت معظم بلاد أوربا الغربية ، وبالتالى تؤجل الثورات الاجتماعية الى حين • لقد كان حكما فرديا يمارسه القيصر وحلقات الأمراء والمنتفعين من حوله ، وتدعمه الكنيسة التى كانت تفرض سلطانها على الجميع لصالح تلك المجموعة المستغلة • ومع أن بلادا فى مثل مساحة الروسيا فى ذلك الوقت تمتد من وسط أوربا حتى أقصى شرق آسيا بها من الخيرات ومصادر الثروة ما كان يتيح أن يتواجد بها ـ بمقاييس ذلك الوقت ـ قدر من الوفرة يساعد على معيشة آدمية لسكانها ، الا أن انصراف الأداة الحاكمة الى تكوين الثروات الخاصة ، والى الانفاق الجاهل الى حد السفه ، وقف ازاء أن تأخذ بلادها بأسباب التقدم العلمى والتكنولوجى ، وسيطر على البلاد جو من التأخر الفنى ، وعدم الايمان بالدولة الى حد أن ظلت تقاسى تلك الدولة المترامية الأطراف ، العديدة السكان ، من الهزائم العسكرية سواء فى الجنوب على يد امبراطوريات وسط أوربا وتركيا ، أو الشرق على يد اليابان ، أو على يد ألمانيا والنمسا خلال الحرب العالمية الأولى • لقد كان نظام الحكم القيصرى يحمل فى طياته من عوامل الانهيار ما يجعله غير مقبول من الجماهير فى الداخل ، وعرضه للمطامع من الخارج •

لقد كان طبيعيا أن تفرز هذه العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بذور الثورة فى داخلها ، أملا فى التغيير الى الأفضل ، وسعيا الى أن تنال الجماهير حقها فى مجرد الحياة الحرة الكريمة •

ولقد أفاض أبناء روسيا ذاتها فى وصف مثالب النظام ، وأفضل الشعراء والقصاصون والأدباء فضحوا عيوب النظام ودعوا الى اسقاطه •

ففي روسيا ، أكثر من أى بلد آخر انتشرت الجمعات السرية ، والتنظيمات البسياسية ، التى اشتركت كلها فى السعى الى تحطيم النظام العفن الذى وصل سوءه الى حد التعارض مع الحياة الانسانية ٠

وكان الأعلى صوتا بين هؤلاء جميعا ، والأكثر وضوحا فيما يتعلق بقضايا المجتمع هم الاشتراكيون الديمقراطيون ، الذين بدأت جماعاتهم فى الظهور خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ٠ وكان لا يمكن أن تغفل عيونهم عن ذلك الاضطهاد الدينى الواسع الذى تمارسه الكنيسة من وراء سلطة الدولة ، والعنت والارهاق الذى يتعرض له أتباع الديانات الأخرى عدا المسيحية ، الى حد عدم الاعتراف بأى حقوق انسانية لهم فى ممارسة شعائرهم ، أو تولى المناصب ، أو القبول بالمدارس ، أو الاعتراف بالزواج الذى يتم بين المسيحيين وغير المسيحيين ٠

لقد وصف **لينين** ــ وكان أبرز زعماء الجماعات الاشتراكية الديمقراطية فى ذلك الحين ــ تلك القوانين بأنها أكثر القوانين اجحافا وتعسفا وعارا ٠ ومنذ ما قبل قيام السلطة السوفيتية بوقت طويل ، وفى عام ١٩٠٣ عالج كيف يجب أن تكون العلاقة بين المواطنين فى مثل قضية الدين الذى يخضع تماما لسيطرة الكنيسة الروسية بقوله ٠٠ **ان لكل فرد الحرية الكاملة ، لافى اعتناق أى دين يراه فحسب ، بل وفى نشر هذه العقيدة وتغييرها ٠ وليس لأى موظف الحق فى سؤال أى ما عن عقيدته : فان العقيدة أمر يخص الضمير ، ولا يمكن أن يتدخل أحد فى هذا ــ ولا يجب أن تكون هناك عقيدة أو كنيسة «سائدة» ، فكل الاديان يجب أن تكون متساوية أمام القانون »** ٠

وكان لايمكن أن تعيش الجماعات الاسلامية المقهورةاقتصاديا وسياسيا، والمضطهدة فى عقيدتها بعيدا عن هذه التيارات التى تتصارع داخل الروسيا ٠ وكان طبيعيا بالتالى ومنذ وقت طويل قبل قيام الثورة الاشتراكية أن يقف بعض بعيدى النظر من قادة المسلمين موقفا مؤيدا لوجهات نظر الاشتراكيين ٠

وقامت الثورة

لقد قامت ثورة اكتوبر ١٩١٧ لتقضي على النظام القديم فى روسيا واتجهت ضد الأغنياء جميعا من رأسماليين واقطاعيين وأمراء وبكوات وقيصرية ، أى ضد الذين كانوا يعيشون على حساب الكادحين ، والذين بنوا سعادتهم على فقر الشعب ودموعه وأحزانه • ونقلت السلطة جميعها الى أيدى الشعب العامل •

وبالتالى اتحد جميع الذين اكتسحهم طوفان الثورة • وحشدوا قواهم • فتدخلت الدول الاستعمارية لتقضى على النظام الجديد ، واستمرت حربهم له سنوات عديدة • كما قام الأمراء والبكوات والخانات المطرودون شأن الرأسماليين والاقطاعيين المطرودين من باقى أجزاء الاتحاد السوفيتي- بتكوين قواتهم الخاصة فى الداخل لمحاولة اسقاط النظام الذى قضى على كل ثرواتهم وسلطانهم • وانتشرت فى آسيا الوسطى عصابات عرفت باسم **الباسماتشى** تكونت فى الأساس من القتلة والسفاكين والنهابين، وانتشرت بين الكادحين الذين أيدوا الثورة ،تنهب بيوتهم ، وتحرق ديارهم ، وتخرب محاصيلهم ، وتدمر الترع والقنوات أملا فى نشر عدم الثقة والخوف ومنع اقامة الحياة العادية ، حتى يرتبك النظام الجديد ويصبح سهلا سقوطه بفضل التدخل الاستعمارى الاجنبى •

واتضح لدى الشعب المسلم ماذا يريد الباسماتشى • واشترك رجال الدين فى الكفاح ضدهم • وأخذ الأئمة والخطباء يجندون المؤمنين للجهاد ازاءهم • ونظموا الفرق والفصائل لمحاربة رجال العصابات • ولذلك انصب قدر كبير من نقمة هؤلاء على رجال الدين فأخذوا من وصلت اليه أيديهم بكل قسوة ووحشية ، ودنسوا المساجد والحرمات ، ونهبوا أملاك الجماعات الدينية ، ومات العديد من رجال الدين ميتة الابطال •

وأصدر رجال الدين الاسلامى قرارا خاصا ضد الباسماتشى يقول « **هناك حيث يحكم المؤمنون وأبنائهم ، وحيث يتركز الاهتمام برفاهية المؤمنين ورخائهم ، وتبذل الجهود لتحسين حياتهم ، فان هذه الارض تنعم بعناية الله لأنها أرض مباركة • والذين يخرجون على طاعة حكامها يستحقون اللعنة فى الدنيا والآخرة** » •

واذا ظلت عصابات الباسماتشي تمارس نشاطها بفضل العون الاستعماري المتدفق اجتمع مؤتمر رجال الدين في جمهورية بخارى الشعبية في عام ١٩٢٤ ، واتخذوا قرارهم الذي جاء فيه « **لقد أقام شعب بخارى بنفسه جمهوريته ، ومن ثم يصبح واجبا احترام ارادة الله التي سمحت بقيامها • انه يجب القاء السلاح والعودة الى حياة السلام في ظل العفو والتسامح العام ، لان تلك ارادة الله ومطالب الشعب • أن سلطة الشعب السوفيتية في بخارى عادلة ورحيمة ولا تريد مزيدا من اراقة الدماء ، ولكن اذا لم يبد الباسماتشي الخارجون على القانون أذنا صاغية الى هذه الدعوة المبنية على ما جاء بالقرآن الكريم ، واذا لم تلق سلاحها كانت من العصاة لارادة الله ، ووجب على السلطة السوفيتية ابادتها ابادة تامة ، وكان قتلهم بغير ذي خطيئة عملا بالشريعة** » •

والخلاصة أن المسلمين في جمهورياتهم كانوا أمام اختيارين لاثالث لهما • اما الانتصار لنظام يضع السلطة السياسية والاقتصادية بين يدى جماهير الشعب الواسعة بعد سنوات طويلة من ظلام الاضطهاد ، وذلك ما اختارته أغلبيتهم الساحقة ، وعلى رأسها زعماؤهم الدينيون، أو الانتصار لعصابات تريد العودة بالسلطة الى الماضي بكل ما كان فيه من استغلال واضطهاد وارهاب • وكان الاختيار الثاني هو ما ارتضاه الأمراء والبكوات والخانات ومن ركب ركبهم من قلة من رجال الدين ، اختارت الأغلبية الساحقة صف الثورة الاشتراكية وعملت على تأييدها ، ويمكن أن نورد هنا بعض الأمثلة من تاريخ النضال من أجل السلطة السوفييتية •

ففي ١٣ مارس ١٩٢٠ اجتمع **المؤتمر الأول لممثلي الشعب في منطقة التركمان** وأرسل تلغرافا الى لينين يقول « ان المؤتمر الأول لممثلي شعب تركمان يرسل يوم افتتاحه بتحياته القلبية لكم • ان شعب تركمان بأكمله الشعب العامل يحيى الثورة الروسية الكبرى ، وكل العمال والفلاحين في روسيا • ان الثورة الاشتراكية التي حررت شعوب روسيا من أدران العبودية ، قد فتحت لأول مرة آفاقا عريضة للنور والحق والعدل • ونحن التركمانيون نقسم كرجل واحد أن نحافظ على مكاسب السلطة السوفييتية ، ونفضل الموت قتالا على أن نسمح لأعداء الثورة الاشتراكية أن يزعزعوا السلطة السوفييتية في تركستان أو كل روسيا » •

كما أرسل **الزعماء الدينيون ومشايخ جمهورية داغستان الاشتراكية السوفييتية** فى ٢٥ فبراير ١٩٢٣ الى لينين يقولون « أن ال ٧٦ مشتركا في مؤتمر رجال الدين ومشايخ المسلمين فى داغستان يحيونك قائـــد جيش العمال العظيم الذى يحرر العالم كله من سلاسل العبودية • ونحن نؤمن أنه بفضل جيشنا سوف يمكن لكل العالم الاسلامى أن يتحرر من الاستعباد » •

وفى ٣ ديسمبر ١٩٢١ أرسل **رئيس مؤتمر « خوجات » آجاريستان** باسمهم خطابا الى لينين يقول فيه أنه « يحيى قائد الثورة البروليتاريـــة العظمى ، بطل تحرير الشعوب المستعبدة وكل الجماهير العاملة فى العالم • ان انعقاد أول مؤتمر لخوجات أجاريستان لا يعير التفـاتا الى التأكيدات الاستفزازية الموجهة الى جماهير الشرق ــ تلك التأكيدات بأن السلطـــة السوفييتية تعنى اضطهاد الدين • وأنه ليقنع كل الجماهير العـاملة فى أجاريستان بالاعتراف بالسلطة الوحيدة ــ سـلطة السوفييتات ــ التى يمكن أن تحرر الجماهير المستعبدة فى العالم من الرأسمالية ، ويعبر المؤتمر عن عميق ثقته فى النصر المقبل لكل الجماهير العاملة فى الشرق » •

وفى عام ١٩٢٠ أرسل **قادة المسلمين فى مقاطعة سباسك** برقية الى أجهزة السلطة بمناسبة اعلان جمهورية التتار يقول « أن رجال الاسلام فى منطقتنا يحيون بسرور اعلان جمهورية التتار ، وتتعهد بنشر العلم بين الجموع الأمية وتأييدها ، والمساعدة فى وقوفها على قدميها ، اننا نعتبر السلطة السوفييتية كالحامى الوحيد لمصالح الأقليات القومية » •

موقف الثورة من المسلمين

ولم يكن ممكنا أن يأخذ المسلمون ، وعلى رأسهم رجال دينهم من الثورة هذا الموقف المؤيد ، والذى تعدى حدود التأييد بالكلمة الى حمل السلاح دفاعا عنها ، الا اذا كان فى موقف الثورة ذاتها منهم ما جعلهم يؤمنون بها الى هذا الحد • والواقع أن استعراضا لاجراءات الثورة وقراراتها فيما يتعلق بعديد الأديان التى كانت قائمة عندئذ ومن بينها الدين الاسلامى

ـ ثاني الأديان انتشارا فى الاتحاد السوفيتي ـ يمكن أن يبين بوضوح لماذا كان تأييدها واسعا بين كافة جماهير الشغيلة فى جميع أنحاء البلاد ٠

لقد مثل ماكتبه لينين ـ وسبق ذكره ـ فى١٩٠٣ الموقف الفكرى للثورة الاشتراكية ازاء جميع الأديان والعقائد بشعبه الثلاث ؛ من أن لكل امرىء أن يعتنق الدين الذى يراه وأن ينشره وأنه لايجب أن تكـون هناك كنيسة سائدة ، وأن العقيدة أمر يخص الضمير ، وانعكس بعد نجاح الثورة فى كل قراراتها ٠

فبعد أسبوع واحد من قيام الثورة صدر اعلان حقوق شعب روسيا ، الذى قضى على سيطرة الكنيسة الأورثوذكسية الروسية متضمنا الحقوق المتساوية لكل الأديان ٠ واعتبر المواطنون أحرارا فى أمور العقيدة الدينية ٠ وأعلنت المساواة التامة بينهم بصرف النظر عن عقيدة أى منهم ٠ وقد تجسد هذا فى القانون الذى أصدره لينين فى ٢٣ يناير ١٩١٨ « بفصل الكنيسة عن الدولة ، والمدرسة عن الكنيسة » ٠ وقد كان ذلك يعنى وضع حد نهائى لسيطرة الكنيسة واعتبارها جزءا ـ بل فى الواقع محركا ـ من أجهزة الدولة ، وصارت سلطتها محصورة فى اتباعها ولا حـق لها فى التدخل فى أى أمر من أمور الدولة ٠ ولكنه وبنفس المنطق صار محرما على الدولة وأجهزتها أن تتدخل بأى صورة فى أمور الكنيسة ٠

كما أبرزت الثورة احترامها لمعتقدات وتقاليد المسلمين فى واحد من أول المراسيم التى أصدرتها بعد أقل من شهر من قيامها حين توجهت فى **نداء الى جميع الكادحين المسلمين فى روسيا والشرق** ، وقعه لينين وجاء فيه « **ان معتقداتكم وتقاليدكم ومؤسساتكم القومية والثقافية تعتبر من الآن حرة مصونة ٠ أنه يمكنكم اقامة حياتكم القـومية بحرية ودون أى عوائق ٠ ان ذلك حقكم** » ٠

واستمر الخط الفكرى للثورة ثابتاً حتى تعبر عنه بصورة نهائيـة وحاسمة فى دستور الاتحاد السوفيتى الذى تنص المادة ١٢٤ منه على أنه « حتى تتأكد حرية الضمير لدى المواطنين ، تنفصل الكنيسة فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية عن الدولة ، والمدرسة عن الكنيسة ٠ ولكل المواطنين الحق فى أداء الشعائر الدينية ، أو ممارسة الدعاية ضـد

الدين » • وتكمل المادة تلك النظرة بنصها على أن لكل المواطنين السوفييت فوق سن الثامنة عشرة بصرف النظر عن عقيدتهم الحق فى انتخاب ممثليهم، كما أن للمواطنين فوق سن الثالثة والعشرين أن يرشحوا كممثلين الى أعلى أجهزة الدولة ، مجلس السوفييت الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوفييتية •

وانطلاقا من تلك النظرة فان جميع الوثائق المدنية الرسمية فى الاتحاد السوفيتي تخلو من أى اشارة الى الدين سواء تعلق ذلك بدخول الوظيفة أو المدرسة أو الالتحاق بالجيش • كما حددت الدولة المسئولية الجنائية للأعمال التى تعوق تأدية الشعائر الدينية • فالمسئولية بهذه الصفة تقع على كل من يرفض قبول المواطنين للعمل أو الدراسة فى أى معهد من المعاهد ، أو كل من يفصل المواطنين من العمل أو المعاهد ، أو كل من يحرم أى مواطن من الامتيازات العادية وغيرها مما يحدده القانون ، أو كل شكل من أشكال تقييد الحقوق ، اذا ما تم ذلك على أساس العلاقة بالعقيدة •

ومع ما يوفره القانون من حرية العقيدة والعبادة وأداء الشعائر الدينية والدعوة لها ، فأنه نظرا للطابع العلمانى للدولة فان غير المؤمنين يتمتعون كذلك بحق الدعاية ضد الدين ، على أنه ــ وبحكم القانون ــ لا يجوز أن تمارس بأى صورة فيها مساس بمشاعر المؤمنين • ولذلك فهى تنحصر دائما فى الآراء المادية فى نشوء الكون والحياة ، وغيرها من قضايا الطبيعة •

ولا تحظر القوانين السوفيتية القائمة الا الطوائف الدينية التى يكون الدين فيها ستارا للتبشير أو القيام بطقوس وحشية أو الفجور • فتحرم مثلا فى الاتحاد السوفيتى طائفة « الخصيان » التى تطلب من كل واحد من اتباعها أن يكون مخصيا ، كما حرمت طائفة « خسيتى » التى تفرض مشادات اجتماعية بين أتباع الطائفة من الجنسين ، تتحول بموجب الطقوس الى أعمال فاجرة • كما حرم نشاط « شهود يهوه » لأنها تعتبر بالفعل منظمة معادية للاتحاد السوفيتى تستغلها المؤسسات الامبريالية فى الخارج ومن بينها ادارة المخابرات المركزية الأمريكية للعمل التخريبى فى الداخل ، ويقع مقرها الرئيسى فى بروكلين بالولايات المتحدة وترسل

منه الى الأراضي السوفيتية بطرق سرية منشورات معادية للدولة ودعـوة « شهود يهوه » الى عدم الخضوع للقوانين والعصيان المكشوف على السلطات السوفيتية ٠

ويتعلق ما سبق بيانه من علاقة الثورة الاشتراكيـة والمسـلمين بالبيانات الرسـمية والقرارات ٠ وقـد أوضحت أن الثورة التزمت فى تصرفاتها بالخط السياسى الذى أعلنته منذ ما قبل الثورة بسنين عديدة والذى يلخصه أن العقيدة أمر يخص ضمير الانسان بحيث لا يمكن لأحد أو نظام – حتى اذا أراد ذلك – أن يحاربه ، وأنه بالتالى لكل امرىء الحق فى أن يختار العقيدة التى يراها ، بل وله فوق ذلك أن يدعو لها ، فأنه من المضامين الأساسية للحرية أن يستطيع الانسان المجاهرة بما يؤمن به ، وأن يبين محاسن عقيدته وما ارتضاه ضميره ٠

وأنه ضمانا لتلك الحرية وتأكيدا لها ، لا يجوز أن تكون هناك فى الدولة كنيسة سائدة مسيطرة ؛ لأن معنى ذلك الحد من حرية الآخرين من غير اتباعها فى اختيار عقيدتهم وممارستهم ، بل وتعرضهم للاضطهـاد أو على الأقل العنت والارهاق بسببها ؛ من هنا التزمت الثورة بهذا فى مواقفها المبدئية وقراراتها وضمنته فى النهاية دستورها ليصير شريعـة تتبع فى الاتحاد السوفيتى كله ٠

وقد يضيف وضوحا الى تلك المواقف المبدئية المتجسدة فى وثائق الدولة ونظامها ، مواقف قادة الثورة فى المسائل اليومية التى قد لا تحكمها مثل تلك المبادىء ٠ وسوف نستعرض عددا منها فيما يلى لعله يزيد أمر العلاقة بين الثورة والمسلمين وضوحا ٠

مصحف عثمان

كان مصحف عثمان ثالث الخلفاء الراشدين أول مصحف مكتوب لدى المسلمين ، اذ جرت العادة على تناقل القرآن رواية بين حفظته منذ نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى جاء عثمان وأراد أن يحتفظ بالقرآن مكتوبا ، تفاديا للخطأ فى تلاوته ، أو تعرضه للنسيان من جانب بعض القراء ، أو على الأقل تعرضه للحن (أى عدم القراءة الصحيحة) عند التلاوة ٠ ولذلك فان لهذا المصحف مكانته عند المسـلمين عامة ٠ فهـو

بالاضافة الى كونه الكتاب المنزل مسجلا كما كان يقرأ فى أيام الرسول والصحابة الأول ، فانه يعتبر أثرا من الآثار الهامة لدى المسلمين عامة .

ولقد آل المصحف منذ فتح آسيا الوسطى الى المسلمين هناك . وعندما تم للقيصرية الاستيلاء على تلك المناطق أمر قائد قواتهم بالاستيلاء على المصحف ، ونقل الى القيصر فى بطرسبرج (لينينجراد حاليا) حيث استقر فى نهاية الأمر فى المكتبة الأمبراطورية العامة . وحاول المسلمون مرارا وتكرارا بكل الوسائل مع القيصرية أن يعاد هذا الأثر الدينى الوحيد اليهم ، فلم يفلحوا ولم تلتفت القيصرية بتاتا الى رجائهم وملتمساتهم .

وفى ديسمبر ١٩١٧ ، أى فى حدود شهرين من الثورة ، توجه مؤتمر منطقـــة بتروجراد القومية الى لينين بالطلب أن « يستجيب الى مشاعر المسلمين الروس » وأن يعيد لهم « مصحف عثمان المقدس » . وفى الحال استجاب لينين الى المطلب ووجه خطابا الى قوميسير الشعب للتعليم أ٠ف٠ لوناشارسكى يقول فيه : « **مجلس قومسياريى الشعب قد قرر أن يسلم مصحف عثمان المقدس المحفوظ حاليا فى المكتبة العامة للدولة الى المؤتمر المحلى للمسلمين دون ابطاء ، ويرجى منك اصدار القرارات الملائمة فى هذا الصدد** » .

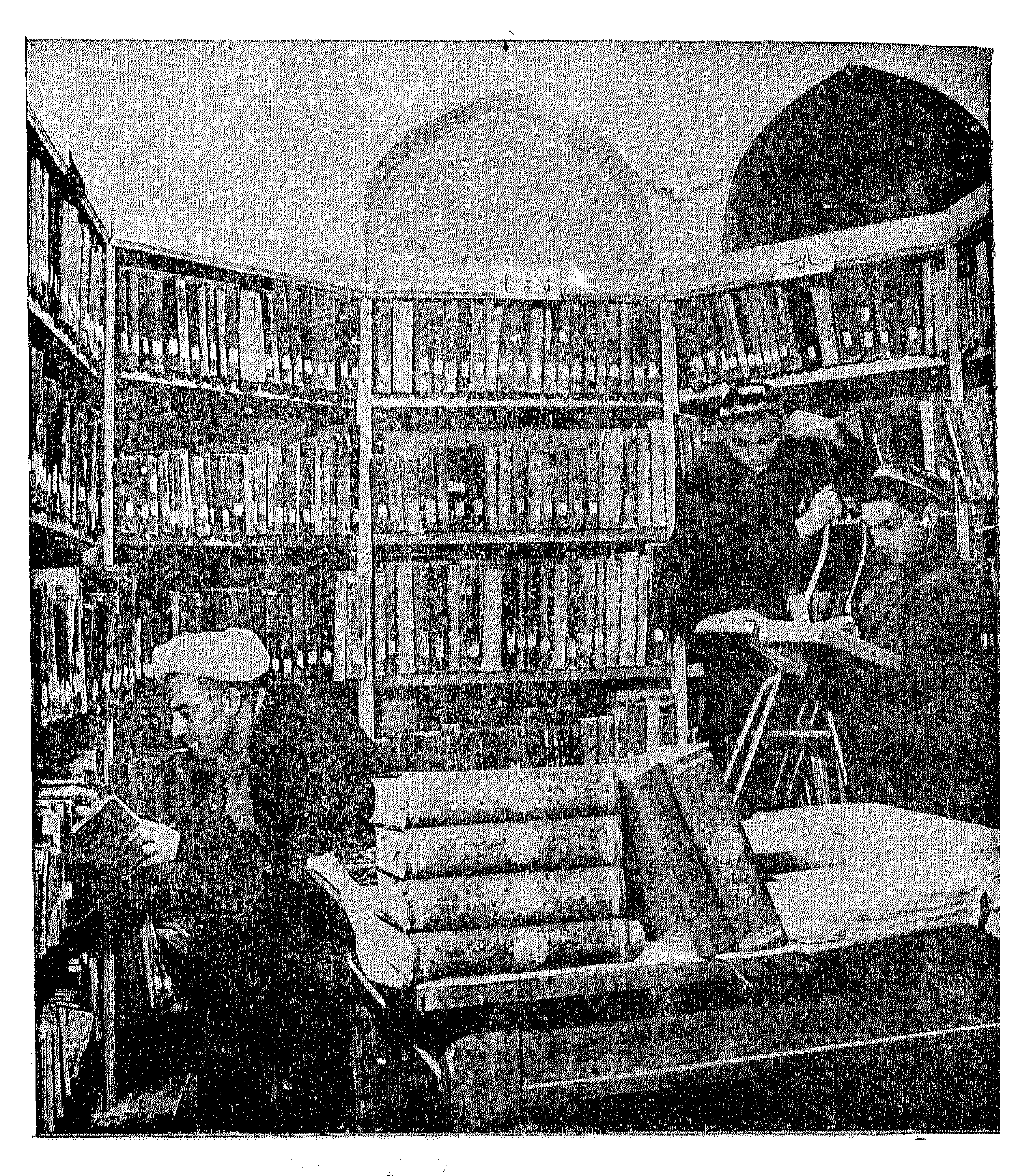
وتم التنفيذ على الفور . وحفظ المصحف فى أول الأمر فى مدينة أوفا . ولكن عندما عقد المؤتمر الأول لمسلمى آسيا الوسطى وكازاخستان فى طشقند ، نقل المصحف الى هناك وتم عرضه للجماهير حيث زاره عشرات الألوف للمشاهدة . وفيما بعد وعندما ثبت بالدراسة العلمية أن المصحف نظرا لطول عهده بالحياة ، انما يحتاج ليظل محتفظا برونقــه وبهائه ، الى أن يوضـع فى مكان خاص مكيف الهواء حتى لا تؤثر عليه تغيرات درجـة الحرارة ، وفى هواء معقم حتى لا تتأثر أوراقــه ومداده بالبكتريا وغيرها من الطفيليات ، ثم نقله الى المكتبة المحلية حيث تتوفر هذه الأجواء . ويظل معروضا للجماهير . وفى نفس الوقت تم تصويره بمختلف الوسائل الفنية ، لتكون منه صـور عـديدة تعرض فى مختلف الأماكن ، وتؤرشـف فى نفس الوقت مفـاداة لهـذا الأثر من الكوارث الطبيعية والحروب وغيرها .

ترميم الآثار واحياء التراث

يؤمن الفكر الاشتراكى بأن الحضارة فى أى حقبة من حياة البشرية انما هى امتداد ونتاج طبيعى للحضارة القومية السابقة لأى شعب من الشعوب • وأن هذه الأخيرة في تطورها نحو الاشتراكية كنظام اقتصادى واجتماعى ، لا تبدأ من فراغ ، ولا تقطع الصلة بينها وبين ماضيها ، بل يجب أن يكون هذا التطور الجديد مرتبطا بالتطور السابق ، نابعا من حيث انتهى ومضيفا اليه ، بحيث ينتقل المجتمع انتقالا طبيعيا ، وفى أكبر اتساق ممكن مع المعطيات الموضوعية التى أوجدتها آلاف السنين السابقة من حياة الشعب •

والكل يعلم أن المعتقدات الدينية تلعب دورا كبيرا في تشكيل حياة الشعوب ، ونظرتها الى الأمور • وحقيقة أنه تنهض الكثير من الأدلة ، وفى عدد كبير من البلدان ، على أن الدين كان دائما ما تستغله الرجعية وأعداء التقدم ضد تطلع شعوبها الى حياة أفضل ، فتنشر بين الجماهير من تعاليم الدين ما يمكن أن يساعد على بقاء سلطانها ، وتركب الصعب من أجل اعطاء التفسيرات الملائمة لصالحها لما يجىء فى الكتب المقدسة أو فى أقوال الرسل أو سير حياتهم • ولكن ، مع الأسف ، تظل الحقيقة قائمة ، بأن الدين يلعب دوره فى تشكيل نظرة الانسان الى الحياة ، ويظل بسبب كونه عاملا فى ضمير المرء يمثل منطلقا للعديد من اتجاهاته الفكرية ، وعلاقته ببسائر البشرية ، وقبوله لمختلف القيم • وبالاضافة الى هذه الحقيقة ، فان هناك حقيقة أخرى تظل لها قوتها وقيمتها ، ألا وهى أن الدين اذا تخلص من سيطرة أصحاب المصالح ومحاولتهم تسخيره لمصالحهم ، فانه فى يد الطبقات المغلوبة على أمرها ، لن يكون الا دعوة للعدالة الاجتماعية ، والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، ودعوة الى التمسك بالخير ــ خير المجموع ــ ما استطاع الانسان اليه سبيلا ، فتلك رسالة الأديان جميعا •

وانطلاقا من هذا ، فلم يكن يمكن أن ينتظر من الثورة الاشتراكية الا أن تأخذ هذا كله فى الاعتبار • وأن تقف من الدين ــ رغم دعوتها بفصله عن الدولة ــ موقف الاحترام ، بل والرغبة فى أن تتيح الفرصة



مدرسة مير عرب فى بخارى ، جمهورية أوزبكستان

المفتي زياد بابا خانوف يخطب فى المسلمين ، جمهورية أوزبكستان

لشعوبها – وعلى الأخص طبقاتها الكادحة – لأن تستخلصه كسلاح من أيدى أعدائها ليكون سلاحا قويا لتحقيق مصالحها •

وبناء على ذلك ، ومنذ السنوات الصعبة الأولى لقيام الدولة الاشتراكية ، حين كانت أربع عشرة قوة كبرى تشن حربا لا هوادة فيها ضد الجمهورية الفتية للعمال والفلاحين ، خصص لينين مؤسس الدولة من الوقت والفكر والجهد ما يسمح له بالنظر فى أمر المحافظة على وصيانة كل الآثار المعمارية الاسلامية • وعندما أبلغ بالوضع الذى آلت اليه الآثار ذات السمعة العالمية فى سمرقند ، قرر على الفور تخصيص المال اللازم لاصلاحها واعادتها الى سابق عهدها ، وصدر قرار الدولة السوفيتية فى ٥ أكتوبر ١٩١٨ – أى بعد أقل من عام من الثورة – مطالبا بضرورة **« المحافظة على ، ودراسة ، والتعريف الكامل للشعب بكنوز الفن والآثار »** •

وكانت تلك هى البداية نحو عمل جاد فى ترميم وصيانة جميع الآثار الاسلامية • وشهدت السنوات التالية اعادة قبور العديد من السلف الصالح الى سابق عهدها مثل شاه زندا ، وجور أمير ، فى سمرقند ، وقبر سانجارا فى تركمانيا وغيرها ، وأعيد ترميم وافتتاح المدارس الاسلامية الشهيرة فى ميدان راغستان بسمرقند ، عدا المدارس الأخرى مثل مدرسة أولوج بيك ، ومدرسة مير عرب ، ومدرسة باروخان وعديد آخر من الجوامع التاريخية مثل جامع كالان الشهير بمئذنته التى ترتفع خمسين مترا عن الأرض • وتذهب الأمور الى أبعد من ذلك ، اذ تقرر جمهورية أوزبكستان السوفيتية تحويل كامل مدينة حيفا بعديد جوامعها الجميلة ومدارسها الى مدينة أثرية متكاملة • وتظل عديد من الآثار المعمارية الاسلامية تحت رعاية الدولة التى تخصص لها مبالغ طائلة للمحافظة على تلك الآثار •

* * *

أما فى مجال احياء التراث فلا تدخر الدولة جهدا ، كما تبذل الادارات الاسلامية للمسلمين قدر استطاعتها للمحافظة عليه وجعله فى الصورة التى يستطيع أن يستفيد منها كل المؤمنين • فلقد ثابرت الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وكازاخستان على جمع ودراسة أكثر المخطوطات وكتب السلف قيمة ، سواء فى بلادها أو خارجها ، فيما يتعلق بالتعاليم الاسلامية والشريعة • وتحتوى مكتبتها على ٢٥٫٠٠٠ مجلد من

الكتب ، ٢٠٠٠ مخطوط يرجع بعضها الى عهود سحيقة فى القدم • وأول ما تعتز به المكتبة هو نسخة من مصحف عثمان الذى يحتفظ به تحت الظروف الملائمة فى المتحف التاريخى لأكاديمية العلوم فى أوزبك كما سبق أن أشرنا •

ومن بين ما تحوى المكتبة المخطوط القديم لعبد الكريم بن خافازين أبو القاسم القشيرى فى شرح القرآن والمعروف باسم « **لطيف العشورات** » والذى يرجع الى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) • وتعتز المكتبة بمجموعتها من المصاحف ، ومن بينها ما يمثل مخطوطا أوحد منذ قرون مضت حتى آخر طبعاته سواء ما صدر فى الاتحاد السوفيتى أو خارجه • وقد يشار من بين هذه المجموعة الى مخطوط نادر للخطاط اسماعيل المبارك والذى كتبه عام ٦٦٥ هجرية فى بخارى ، والذى يتميز بحروفه الكبيرة ، وبترجمته كلمة بكلمة الى الفارسية • ومن ثم يعتبره الخبراء أقدم تراجم القرآن الى لغة غير العربية • كما تحوى المكتبة نسخا من القرآن باللغات الانجليزية واليابانية وغيرها •

وبالاضافة الى (لطيف العشورات) تحوى المكتبة التفسير المعروف لمحمود الزمخشرى ، والمسمى ، « **تفسير الكشاف** » والذى يرجع الى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) • ولدى المكتبة واحد من أقدم المخطوطات عن هذا الكتاب منذ القرن الثالث عشر • وكذلك تحتفظ بكتاب « **تفسير بحر الأمواج** » الذى كتبه القاضى شاه أبو الدين هندوستانى الذى توفى عام ٨٤٨ ميلادية • وغيرها العديد من المخطوطات •

* * *

تطور الجمهوريات الاسلامية

كانت جماهير المسلمين تعانى فيما قبل الثورة من نوعين من الاستغلال ، أحدهما عن طريق القيصرية وسندها الكنيسة الأورثوذكسية، والثانى هم الأمراء والبكوات والخانات المحليون والقلة التى تعلقت بركابهم من رجال الدين المسلمين • ولذلك فقد بقيت على درجة بعيدة من التأخر سواء فى تطورها الاقتصادى أو الاجتماعى أو السياسى • ويكفى أن نقوم

بينهم ـ وحالتهم على هذا الوضع ـ ثورة اشتراكية تزيل سيطرة الاقطاع ورأس المال سواء الخارجى عنها أو الداخلى من بينها ، وتحرر الانسان فى حياته الانتاجيــة ، لندرك كم سـيكون أثرها على الجـماهير التى طـــال استغلالها ٠

واذا حاولنا هنا أن نفاضل بين الوضع فيما قبل الثورة ، وما تطور اليه بعـــدها لاتسع بنا المجال ، ودخلنـــا فى تقييم انجازات الثـورة الاشتراكية ـ كمثال لاى ثورة مماثلة ـ فى مقابل المجتمع الرأسمالى شبه الاقطاعى الذى كان يعيشه المسلمون ، وهو ما قد يخرج بنا عن رسالة هذا الكتاب ٠ ولكن يكفى أن نذكر فى هذا المجال أن التطور الذى شمل الاتحاد السوفيتى بجمهورياته المختلفة سار بنفس الخطى فى الجمهوريات الاسلامية بحيث قد أصبح فى كل منها القاعدة الصناعية الضخمة التى تتفق مـع ثروات البيئة المحيطة ، والزراعة الحديثة الميكنة القائمة على الترشـيد العلمى ، والثروة الحيوانيـــة التى تتضاعف كمـــا ونوعا على أسس من الدراسة والاختيار بين الســلالات ، واستصـلاح الأراضى الصـحراوية الواسعة التى تتميز بها جمهوريات آسيا الوسطى ، بل وتحويل مجارى الأنهار من أن تصب فى المحيط المتجمد الشمالى لتتجه جنوبا ، وتكوين البحيرات الصناعة ، الى آخر مختلف الانجازات التى نقلت الاتحاد السوفيتى الى ثانى قوة صناعية وتكنولوجية فى العالم ، بل وتفوق أمريكا فى العديد من المجالات ٠ لقد نالت الجمهوريات الاسلامية نصيبها الأوفى من التقدم على جبهة التطور ، الأمر الذى ولاشك ينعكس أثره على حياة الجماهير ، وبالتالى لا بد أن يكسبها ٠

وربما لو اتجه بحثنا الى بعض الجوانب فى الحياة اليومية للمسلمين وفى نوعية وكم الخدمات التى تقدم لهم ، لأمكن أن نستنتج منها صـورة موقف الثورة الاشتراكية منها ٠

لقد كانت نسبة التعليم فى جمهوريات المسلمين تتراوح بين ٥ر٠ الى ٢٪ ٠ ومع هذا لقد تم منذ سنوات عديدة القضاء على الأمية قضاءا تاما ، بل وتتفاخر الأسر الاسلامية حاليا بأنه لا يمكن أن توجد أسرة واحد تخلو من شخص ذو تعليم عال أو متوسط ٠ ان كل طفل ومنذ أن يبلغ السابعة من عمره ينخرط فى سلك التعليم الالزامى الشامل لمدة سـبع سنوات

ليقف على عتبة المرحلة الثانوية · وان كانت لدى أى منهم الرغبة والقدرة لتطوير المعارف والاتجاه الى التخصص فانه يستطيع الانخراط فى مؤسسة دراسية عليا أو متوسطة ، فى معهد أو جامعة ، حيث تقدم الدولة المنح الدراسية لطلاب هذه المستويات أثناء الدراسة ، وتؤمن مساكن للغرباء منهم ، كما يتمتعون ببطاقات مواصلات مخفضة · وليس غريبا بعد ذلك أن يؤدى تطور التعليم فى كل هذه الجمهوريات الى أن تتمتع الآن كل منها بجامعة على الأقل ، وأكاديمية خاصة للعلوم ، مع انتشار واسع لمعاهد ومؤسسات البحث العلمى ·

لقد مضى زمن طويل منذ كانت الأغلبية الساحقة من أبناء المسلمين يقضون حياتهم اما أشباه عبيد لدى ملاك الأرض أو رعاة لقطعان هزيلة تجوب الصحراء بحثا عن قليل الكلأ والمرعى ، واما على عدد من الحرف المحلية ، التى وان كانت لها شهرتها ، الا أنها لم تكن تؤتى ما يقيم أود الحياة · لقد مضى ذلك الزمن وأصبح فى حكم التاريخ البعيد · بحيث قد تغير تماما شكل العمل والانتاج وانتقل من صورة القرون الوسطى الى أعلى مستويات القرن العشرين · ويسير مع اتاحة فرص العمل المتقدمة والتى قضت على كل الصور القديمة ، تمتع الجماهير بمختلف القوانين الاجتماعية ، من كفالة حق العمل لكل مواطن ، والضمان المادى عند العجز ، أو عدم القدرة على العمل ، وأثناء المرض ، وحق الأجازة المدفوعة الأجر ، والعلاج الطبى الكامل ·

أما فى شأن الرعاية الصحية للمواطنين ، فكأنها لم تكن فى الحسبان لدى الحكم القيصرى · فأضافة الى الارتفاع الفاحش لتكلفة العلاج لم يكن موجودا فى جمهورية تركمانستان بمساحتها البالغة ٤٨٨٠٠٠ كيلومتر مربع ، والتى تساوى فى مساحتها كلا من بريطانيا وألمانيا الغربية مجتمعتين أكثر من ٥٦ طبيبا ، ١٣٩ مساعدا طبيا · كما لم يكن فى أوزبكستان التى يقطنها ٤٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة أكثر من ١٢٨ طبيبا ويمكن قياس باقى مناطق المسلمين · على هذا الأساس · والنتيجة كانت بالطبع انتشار الأوبئة بحيث تبلغ حصيلتها عشرات الآلاف من السكان فى كل عام ، وارتفاع نسبة وفيات الأطفال الى ثلث عددهم خلال السنة الأولى من حياتهم · وقد تطورت أوضاع تلك المناطق الى ما يغاير تلك الصورة تماما · فسكان تركمانيا الذين يبلغون ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ حاليا يرعى شئونهم

الطبية ٤٤٠٠ طبيبا بما يعنى أن هناك ٢١٫٥ طبيب لكل ١٠٫٠٠٠ من السكان • أما فى أوزبكستان وحيث يبلغ تعداد السكان ١٢ مليونا ، فهناك ٢٠٫٠٠٠ طبيب ، وأكثر من ٦٠٫٠٠٠ مساعد طبى بما يعنى أن هناك فى المتوسط طبيبا لكل ٦٠٠ من المواطنين • كما يوجد بتلك الجمهورية ٣ معاهد طبية عليا ، ومعهد صيدلى عالى ، ١٨ مدرسة طبية ثانوية تتولى تموين الجمهورية باحتياجاتها من تلك التخصصات • والنتيجة أن لدى جمهوريات الشرق السوفيتى الآن من الأطباء لكل ألف من السكان عددا أكبر مما يوجد فى أكثر بلاد العالم الرأسمالى تقدما • واذا ما أضيف الى ذلك كون العلاج مجانيا فى جمع مستوياته ومراحله ، أمكن ادراك التغير الشامل الذى تم بمناطق المسلمين التى لم تكن تجد الطبيب ، وان وجدته فلن يتوفر لجماهيرها اجره أو أجر العلاج ، مما جعلها فيما قبل الثورة الاشتراكية نهبا لأهل الدجل والشوعذة وأدعياء الطب •

* * *

واذا كان التقدم يقاس أحيانا بمدى ما يصل اليه فى حياة المرأة ، فان الصورة هنا كذلك تعكس طفرة كبرى بين أوساط المسلمين • ففى جمهورية التتار الاشتراكية السوفيتية والتى لم يكن بها عمليا قبل الثورة الاشتراكية امرأة واحدة ذات تعليم ثانوى ، ناهيك بالتعليم العالى، تصل نسبة المرأة بين الأخصائيين حاليا الى ٦٠٪ فى المتوسط ، تجدهن موزعات بنسبة ٢٥٪ بين المهندسين ، ٣٨٪ بين أخصائى الزراعة وتربية الحيوان والطب البيطرى ، وتصل نسبة المرأة فى التعليم ٧١٫٣٪ ، ٨٨٫٤٪ فى الرعاية الصحية • كما تحتل المرأة ٣٥٪ من بين مقاعد ممثلى الجمهورية فى مجلس السوفيت الأعلى ، وتصل نسبتها الى نصف الـ ٢٨٫٥٩٨ مقعدا فى أجهزة الحكم المحلى وممثلى سوفيتات جماهير العاملين •

وفى جمهورية تركمانيا ، وحيث لم يكن ممكنا أن توجد قبل الثورة الاشتراكية امرأة واحدة متعلمة ، هناك اليوم عشرات الألوف يعملن بنجاح فى مختلف نواحى النشاط الاقتصادى • هناك حوالى ٤٠٫٠٠٠ منهن حصلن على تعليم عالى أو ثانوى متخصص ، يمثلن ٤٤٪ من عدد الأخصائيين بالجمهورية • وهناك أكثر من ٣٠٠٠ امرأة فى مناصب ادارية عليا فى المصانع والمزارع الجماعية والمكاتب • وفى عام ١٩٦٧ كان هناك تسعة منهن فى مناصب الوزراء ووكلائهم ، كما لهن ـ بالانتخاب طبعا ـ ثلث مقاعد السوفيتات المحلية •

وليس متصورا أن تصل المرأة الى مثل هذه الدرجة من التقدم الا اذا كان نفس القدر وأكثر قد تحقق للرجال بالطبع • والا اذا كانت الدولة قد وفرت كل الرعاية اللازمة لأبنائهن فى دور الحضانة التى تتسع بالفعل لجميع أبناء النساء العاملات فى كل المواقع وتدفع الدولة معظم تكاليفها ، والا اذا كانت الحياة المنزلية قد ارتقت الى مستوى الاعتماد على وسائل الحياة الحديثة **خفضا للجهد فى** المنزل على الأم العاملة •

هذا ولم يكن اضطهاد المرأة فيما قبل الثورة الاشتراكية مقصورا على ابقائها فى دائرة الجهل المطبق وغيرها من مظاهر المجتمع المتخلف ، بل كان يمتد الى ممارستها للعبادة الدينية ذاتها ، بحيث لم يكن متاحا لهن أن يغشين المساجد أو أن يستمعن للدروس والمواعظ الدينية • أما اليوم فانه يمكن أن تشاهد أعدادا كبيرة منهن فى المساجد فى موسكو ، ولينينجراد، وكويبيشيف ، وأورنبرج ، وتاتاريا ، وبشكيريا ، وأذربيجان ، وكازاخستان ، وأوزبكستان ومناطق أخرى حيث يؤدين الصلاة ويستمعن الى دروس الدين اما فى غرف مخصصة لهن بالمساجد ، أو فى أجزاء منها منفصلة عن باقى مساحة الجامع •

* * *

وبعد :

فان تاريخ المسلمين فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى مع الثورة الاشتراكية شاهد انتقالا جذريا من ظروف ما قبل الثورة الى أوضاع جديدة تماما بعدها •

من اضطهاد للعقيدة ، وعدم الحرية فى ممارستها ، وعدم امكان الدعوة لها ، الى اعتبار حرية العقيدة ضمانة أساسية للحياة ، واتاحة كل الحرية لممارستها ، والدعوة لها •

ومن سيطرة لأحد الأديان على باقيها ، تسخر الدولة لخدمته ، وتشكل القوانين بما يلائمه ، الى ازالة هذه السيطرة بتاتا ، وتساوى بين الأديان جميعا •

ومن عنت وارهاق فى التعيين فى الوظائف أو القبول بالمدارس ان لم يكن الفرد من اتباع العقيدة المسيطرة ، الى وضع لا يسأل فيه المواطن عن

عقيدته على اعتبار أن ذلك أمر يخصه تماما ، وتثبيت القواعد القانونية التي تحرم أى تفرقة فى المعاملة أو المزايا على أساس العقيدة ٠

ومن أوضاع تردت فيهـا أماكن العبادة ، ومقـار ممارسـة الحياة الروحية ، وتداعى الكثير منها حتى تكاد تذروه الرياح ، الى ترميم لجميع الآثار والمعابد دون استثناء ، واستعادة لكل المقدسات عند المسلمين ٠

ومن كل ظروف الحياة فى مجتمع متخلف بما يعنيه ذلك من انخفاض مستوى المعيشة الى أقل من الكفاف ، وأمية متفشية ، ورعاية صحية تكاد تكون معدومة ، وضمانات اجتماعية ضد البطالة وأخطار العجز وعنـد الشيخوخة لا يسمح القوم بها ناهيك عن ممارستها ، ومعدلات لوفيات الأطفال من بين أعلاها فى العالم ، وحياة ثقافية معدومة تماما ، وغيرها من كل مظاهر التخلف الى كل مظاهر الحياة فى مجتمع حضارى متقدم بكـل ما يعنيه من صناعة متقدمة ، وزراعة علمية ، وثروة حيوانية نامية ، وكل الضمانات ضد البطالة والمرض والعجز والشيخوخة ، وثقافة تعنى بالقديم وتحييه وتكسب من الجديد كل مظاهره سواء فى المسرح والسينما والفنون التشكيلية والفولكورية ــ وهكذا ٠

واذا كان ذلك ما أتت به الثورة ــ وهو اذا شئنا الحصر كان صورة صاروخية للتقدم ــ وكان ذلك هو التغير الذى حدث فى حياة المسلمين الروحية والمادية ، فان الاجابة على أى تساؤلات سواء فى علاقتهم بالثورة والمجتمع الاشتراكى ، أو فى حرية العقيدة والممارسة أو غيرها ، تصبح معروفة على الفور وليست بحاجة الى ايضاح ٠



الفصل الثالث

الحياة الروحيـــة للمسلمين

عرضنا فيما سبق لدخول الاسلام بعض جمهوريات الاتحاد السوفيتي وتطوره من فترات ازدهار آتت ثمارها بهذا العدد الوفير من العلماء الأوائل الذين لم تقتصر جهودهم على نشر الاسلام وتعاليمه فى بلادهم وبين أهليهم فحسب ، بل بلغ من ارتفاع كعبهم وفيض علمهم أن صار ما كتبوا من حديث وتفسير وغيرها مراجع لدى المسلمين فى بقاع الأرض كافة ورأينا كيف خبا ذلك النور الساطع وسط ظلام حكم القيصرية ، وما تعرض له المسلمون من ضغط وارهاق نتيجة سيطرة الكنيسة الأورثوذكسية ، ودأبها على دفع الدولة الى ملاحقة اتباع الديانات الأخرى ، فضلا عن عدم الاهتمام بشئونها حتى كادت الآثار الاسلامية جميعا تندثر ، والمخطوطات تتبعثر وتتلف ، ومدارس اعداد رجال الدين تغلق ، حتى لم يبق من هؤلاء ويعلو صوته الا ذلك النفر الذين باعوا ايمانهم للشيطان ، وعاشوا يدعون الى ما يبقى على حكم الأقطاع والقيصرية ، ويقدمون من الفتاوى ما يرهب المسلمين عن أن يطلبوا تغييرا ، أو أن يتطلعوا الى جديد ٠

وعرضنا للثورة الاشتراكية وموقفها الفكرى من الأديان عامة ، وكيف كان ازاحتها لسيطرة الكنيسة بمثابة ازالة حجر عثرة ظل يضغط على صدور المسلمين قرونا عديدة ، وكيف احترمت عقيدتهم ومقدساتهم وبذلت الجهد لترميم الآثار واحياء التراث ، ثم فى النهاية كيف تغيرت كيفيا الحياة المادية التى يحياها المسلمون ، وانتقلت بهم من تخلف القرون الوسطى الى أرحب آفاق القرن العشرين ٠

ان هذا كله لابد وأن يثلج صدر كل مؤمن غيور اذ يرى اخوة له فى العقيدة ، وقد تحرروا من ذل الحاجة ، وبعدت الشقة بينهم وبين العوز ، وتحولت حياتهم من قلق لما سوف يكون فى الغد ، الى اطمئنان فى العيش حتى ما بعد الغد ، وحتى يأذن الله لهم بملاقاته ٠

ولكن ذلك المؤمن ذاته قد يقلق ويتساءل ، وماذا بعد ؟ ٠٠ ماذا بعد أن استقر بالناس العيش ؟ هل سوف تنسيهم الدنيا أمور الدين ؟ وهل ، والدولة علمانية ، سوف تذهب أمور المسلمين أدراج الرياح ؟ ماذا يكون من أمرهم اذا احتاجوا جامعا للصلاة ، وكيف سيعرفون تقويم العام حسب دينهم ، وهل سيعرفون وتعترف الدولة بأعيادهم ، وبعاداتهم وتقاليدهم ، وما يفرضه عليهم دينهم ؟ وسوف تترى الأسئلة واحدا وراء الآخر ، وكلها

قلق على حياة المسلمين الروحية رغم أنه قد اطمأن على حياتهم المادية ٠

ولن يكون هناك ما يشفى غليله ، ويرد اليه الطمأنينة الا اذا عرضنا لكيفية ممارسة المؤمنين شعائر دينهم وعبادتهم كما هى ، وكما شاهدها وأقر بها العديد من أئمة المسلمين وعلمائهم والذين سوف نخصص لشهاداتهم الفصل الأخير ٠

كيف تتكون الجماعات الدينية :

لما كانت الدولة فى نظامها ، من حيث هى دولة ، علمانية ينفصل فيها الدين عن الدولة بتاتا فانها لا تمارس أى نشاط من جانب الأجهزة الحكومية ذاتها فى تكوين أى جماعة دينية أو مجرد تشجيع التكوين ٠ ولكنها من جهة أخرى لا تقيم أى عقبة أمام تكوين أى جماعة أو طائفة ترتضى مجموعة من المواطنين تكوينها ٠

فانه لتسجيل أى طائفة دينية ، يكفى أن يوقع عشرون شخصا فحسب من سكان أى مدينة أو قرية أو أى مكان آهل بالسكان على كتاب لجهات الحكم المحلى برغبتهم فى واعلانهم تأسيس طائفة دينية ، لتحصل الطائفة على الاعتراف القانونى بها مباشرة ٠

وبالطبع يترتب على ذلك الاعتراف عديد من الحقوق للطائفة وواجبات يجب أن تلتزم بها ٠ فهى ملزمة باحترام النظام الأساسى للدولة ، وألا تمارس أى عدوان على حقوق الآخرين في اعتناق ما يرون من عقيدة ، وألا يكون بين شعائرها ما تحرمه الأخلاق العامة مثل ما سبق الاشارة اليه عن الطوائف التى تمارس العهر أو العادات الشاذة المنافية للأخلاق والآداب العامة ، وان تمكن كل المؤمنين بعقيدتها من ممارسة شعائرهم دون تفضيل أو تمييز وهكذا ٠ ويترتب لها من الحقوق على الدولة تهيئة الحصول على البيانات اللازمة للصلاة وأداء الشعائر ، كما تعطى الدولة مجانا كل الأدوات الدينية الموجودة لديها والأجهزة الضرورية للبناية ٠

واذا لم يكن فى هذه المنطقة أو تلك بنايات خاصة للصلاة ـ جامعا أو كنيسة أو غيرها ـ كان للمؤمنين المنضمين للطائفة الحق فى أن يستأجروا أو أن يقيموا بناء خاصا حسب حاجتهم ٠

وعند هذا الحد تنتهى صلة الطائفة بالدولة بتاتا الا فيما يمس القانون والنظام العام • فالطائفة ليست مطالبة مثلا بأن تبلغ أحدا عن أسماء أتباعها ، أو أن تستأذن أحدا فى ممارسة شعائرها • ان الطائفة مسئولة تماما أمام جمهورها هى فحسب عن قيامها بواجباتها • ولأتباع الطائفة أن يضعوا هم القواعد المنظمة للممارسة الروحية للمؤمنين ، وان تنشىء من بين أعضائها أجهزة لقيادة أو متابعة مختلف أوجه نشاطها ، ولها أن تجبى الاشتراكات والتبرعات من أتباعها – التى تعفيها الدولة بدورها من الضرائب –وان تهيىء الوسائل لاعداد القائمين على نشر دعوتها • أن لها أن تنشىء المدارس وتهيىء الوعاظ والمطارنة والشمامسة ، وان تطبع وتوزع منشوراتها التى تدعو لها ، كما أنها حرة تماما فى قضايا العلاقات مع الطوائف الأخرى سواء فى الداخل أو فى الخارج •

ويحدد القانون السوفيتى حقوق وواجبات الطوائف فيما يلى :

(أ) اقامة الصلاة والاجتماعات والشعائر المرتبطة بالعبادة •

(ب) تعيين أو انتخاب الأئمة (بمعناها لكل الطوائف) وسائر الأشخاص اللازمين لرعاية الاحتياجات الدينية •

(جـ) استعمال وادارة أماكن العبادة وسائر متعلقاتها •

(د) أن تجمع الهبات فى أماكن الصلاة لاعاشة الأئمة وصيانة دور العبادة ومتعلقاتها وسائر أنشطتها •

(هـ) أن تكون لها الأختام والطوابع والمطبوعات التى تحمل اسم وشعار الطائفة •

وبالاضافة الى تلك الحقوق التى لا حاجة للطائفة فى استئذان واحد بشأنها ، فان لها بالتنسيق مع الادارات الحكومية تملك وسائل المواصلات التى تلزمها وأن تبنى وأن تستأجر الأماكن للأغراض الدينية ، وان تدير وان تصنع منتجات دينية ، وان تعقد المؤتمرات الخاصة بها •

وطبيعى أن تكون هناك اذن ضرورة للاتصال المنتظم بين المؤسسات الدينية وأجهزة الدولة • ولهذا أنشىء مجلس الشئون الدينية الذى يتبع

الحكومة المركزية مباشرة ، ولكن تنتشر فروعه فى كافة الجمهوريات والمقاطعات والأقاليم • ويتكون المجلس من ممثلين عن الأجهزة الحكومية ، وممثلين للطوائف الدينية والدنيوية ، كما يمنح جوازات السفر للوفود الدينية المسافرة الى الخارج ، وتأشيرات الدخول الى الاتحاد السوفييتى لرجال الدين والأجانب •

التنظيمات الدينية للمسلمين

تسرى القواعد السابق طرحها على المسلمين شأن غيرهم من الطوائف وأصحاب العقيدة فيتولون بالكامل كافة أمورهم الدينية •

وفى الواقع تبدأ التنظيمات الدينية للمسلمين من المكان الأول الذى يجمعهم وهو المسجد • فالذين يؤمون مسجدا ما ، يمثلون جمهوره • وينتخب جمهور المسجد بينه ثلاثة من أخيار المؤمنين يسمون على مستوى المسلمين جميعا « المتوليات » يمثلون مجلس ادارته ويديرون كل أمور الطائفة محليا ، ويتولون المسائل المالية ، ويحافظون على المبنى ومتعلقاته ويمثلون جمهورهم فى علاقته مع الطوائف الأخرى والحكومة • وتطبيقا للديمقراطية فعليهم أن يعرضوا دوريا على جمورهم تقريرا عن نشاطهم وعن أحوال الطائفة ويخضعون لثقتها فيهم • وينتخب الجمهور بالاضافة الى هؤلاء ، لجنة للرقابة المالية على حسابات الطائفة مسئولة كذلك أمامه • وتشهد الوقائع بأن ذلك النظام قد أدى الى أن تغطى تبرعات المؤمنين كل المصاريف اللازمة ، بل وأن توجد وفورات كافية كاحتياطى للمستقبل • وغنى عن البيان أن تحسن أحوال المعيشة للشعب بالاضافة الى ايمان المؤمنين هما العاملان المسئولان على أن تكون حصيلة التبرعات على هذا القدر من الكفاية ، ثم أن تفيض بحيث يرسل الفائض الى المجلس الاسلامى الذى تتبعه المنطقة ليوجهه الى ما فيه خير الطائفة كلها •

وطبيعى أن التاريخ الطويل للدين الاسلامى فى أراضى الاتحاد السوفيتى ، وصور الازدهار التى سبق الاشارة اليها قد أدت الى أن يتكون فى مختلف أجزاء البلاد فى الماضى التاريخى عدد من المراكز الدينية تشرف وتوجه حياة المسلمين ، ورغم ذلك فقد أدى اضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية والقيصرية الى ذبول هـذه المراكز وانحلالها ، والى تشتت رجال الدين بحيث لم يبق منهم الا من سار سيرة أمراء الاقطاع الحاكمين عندئذ •

وكان على المسلمين وقد أعادت الثورة الاشتراكية لهم حقوقهم وحرية عقيدتهم ، أن يعيدوا تنظيم صفوفهم ، وأن يبدأوا العناية بطائفتهم وأمورها وحياتهم الروحية • وسارت الأمور طبيعية فى مساجدهم ومراكزهم ، ولكن كان لا بد أن يرقى التنظيم الدينى الى أبعد من ذلك •

المجالس الاسلامية :

وفى شهر سبتمبر ١٩٤٢ قام ممثلو كبار رجال الدين فى آسيا الوسطى بزيارة يولداش أخوبنابيف ، وكان يشغل فى ذلك الوقت منصب رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفيت الأعلى فى جمهورية أوزبكستان الاشتراكية السوفيتية • وبدأ ايشان بابا خان بن عبد المجيد خان رئيس الوفد وممثل رجال الدين فى أوزبكستان فى مجرى الحديث الذى دار أثناء الزيارة يشرح كيف أنه « يوجد فى بلادنا عدد كبير من المساجد ورجال الدين ، ولكن الشعائر الدينية تختلف فى شكل أدائها من منطقة الى أخرى • كما أن الأعياد لا تراعى بشكل دقيق (أى فى نفس الوقت) ، وليس هناك من يهتم باعداد رجال الدين المسلمين الجدد » وعبر فى النهاية عن أن المؤمنين الذين أزعجهم هذا الوضع يطالبون حكومة أوزبكستان بالسماح لهم باقامة مركز اسلامى فى طشقند ، وهيئة خاصة تتولى الاهتمام بكافة أمور المسلمين •

وصدر التصريح بتنظيم مركز اسلامى ، كما قامت هيئة من رجال الدين المسلمين بوضع مشروع لائحة المجلس الاسلامى ، واتخذت الاجراءات التنظيمية اللازمة للدعوة للمؤتمر الأول لمثلى المسلمين فى آسيا الوسطى وكازاخستان • وكان أهم ما اتخذ من اجراءات احضار المصحف المقدس الخاص بالخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، من أوفا ــ حيث كان محفوظا منذ أمر لينين بتسليمه للمسلمين ــ الى طشقند مقره المستمر السابق قبل أن تنقله القيصرية الى بطرسبرج • وفى ٢٠ أكتوبر ١٩٤٣ بدأ المؤتمر الأول أعماله ، وحضره ١٦٠ مندوبا من أوزبكستان ، وطاجيكستان ، وتركمانيا ، وقرغيزيا ، وكازاخستان الى جانب عديد من الضيوف من الجمهوريات الأخرى • وقام المؤتمر بانتخاب هيئة رئاسة المجلس الاسلامى من سبعة أعضاء ومجلسا للادارة • وكان أول اجراء يتخذه المجلس هو اقامة معهد دينى فى بخارى وتنظيم الحج الى الأماكن المقدسة الأمر الذى لم يتيسر تنفيذه الا بخروج أول بعثة للحج بعد الانتصار على الغزاة الألمان •

ونظرا لاتساع الرقعة التي ينتشر فيها المسلمون في الاتحاد السوفيتي واختلاف اللغات ، بل واختلاف الليل والنهار ، فقد انتهى الأمر بالمسلمين الى تكوين أربع مجالس اسلامية يختص كل منها بمنطقة من المناطق • وهذه المجالس هي :

١ ـ المجلس الديني لمسلمى آسيا الوسطى وكازاخستان • ويشرف على الأمور الدينية للمسلمين فى أوزبكستان وكازاخستان وطاجيكستان وقرغيزيا وتركمانيا ومقره مدينة طشقند •

٢ ـ المجلس الديني لمسلمى الجزء الأوربى من الاتحاد السوفيتي وسيبريا ويشرف على الأمور الدينية فى منطقة شاسعة تمتد من أقصى شرق سيبريا الى لنينجراد غربا ، ومن أقصى الشمال حتى حدود بحر قزوين عدا القوقاز الشمالى وداغستان ، ومقره مدينة أوفا بجمهورية بشكيريا •

٣ ـ المجلس الديني لمسلمى المنطقة الواقعة خلف جبال القوقاز وتشرف على شئون المسلمين فى أذربيجان وجورجيا وأرمينيا ومقره مدينة باكو •

٤ ـ المجلس الاسلامى لمسلمى شمال القوقاز • ويشرف على الحياة الدينية للمسلمين فى داغستان وجمهورية كاباردينو ـ بالكاريا الذتية الحكم ـ وجمهورية تشيتشينو ـ أنجو شيتيا الذاتية الحكم ـ وجمهورية أسيتيا الشمالية الذاتية الحكم ، واقليمى كاراتشينفو تشيركيسيا واديجيسكيا الذاتيتى الحكم • ومقر المجلس فى مدينة بوينا كس (داغستان) •

ويرأس هذه المجالس شيوخ يحملون لقب المفتى ، أما مجلس مسلمى ما وراء القوقاز فيرأسه شيخ الاسلام •

وينتخب أعضاء المجلس الاسلامى فى مؤتمر من ممثلى رجال الدين والمؤمنين كما يضع المجلس دستوره ولوائحه الداخلية التى يجب أن يقرها المؤتمر • وتقرأ فى دستور أحدها فتجد فى مادته الحادية عشرة أن واجب المجلس هو نشر تعاليم الاسلام بين المؤمنين وقيادة أعمال رجال الدين • كما يحوى فى مادته الثانية عشرة أن على المجلس أن يقدم بناء على هدى

القرآن والحديث تفسير تعاليم الدين والشريعة ، وان عليه نشرها على كافة المسلمين فى منطقته • كما ينص على أن تكون كل أعمال الافتاء بتوقيع المفتى نفسه •

ولا يقتصر عمل المجالس الاسلامية على الافتاء فى أمور الشريعة فحسب ، بل أنها تمارس عدا ذلك عديدا من الأمور الدينية أهمها :

– تسجيل كل المساجد ودور الصلاة والجمعيات الدينية ، ورجال الدين الاسلامى ، بما فيهم هؤلاء الذين يمارسون النشاط الدينى فى الجمعيات ، ومن توكل اليه أعمال فى ادارة المجلس •

– ترشيح وتعيين الأشخاص الذين يقومون بواجبات رجال الدين فى مناصب أئمة المساجد والمؤذنين ، وذلك بعد اختبار واقرار صلاحيتهم • ويحصل هؤلاء على شهادة بالصلاحية والتعيين بتوقيع المفتى ولا يسمح لهم بالعمل بدونها •

– عزل الأئمة والمؤذنين من مناصبهم اذا خالفوا أحكام الدين أو ارتكبوا ما يخل برسالة رجل الدين •

– النظر فى طلبات أو شكاوى المؤمنين أو رجال الدين من القضايا الداخلة فى صلاحيات المجلس •

– اصدار المطبوعات الدينية الضرورية •

– تعيين المحتسبين والقضاة المفوضين عن المجالس الاسلامية فى المناطق •

– تقديم العون للمسلمين الراغبين فى الحج الى الأماكن المقدسة •

– توزيع وانفاق الأموال الواردة الى صناديق المجالس الدينية •

وبالاضافة الى المجالس الدينية الأربعة ، توجد لجنة الافتاء ومقرها موسكو ، وتتكون من رؤساء المجالس الأربعة ، حيث يجتمعون مرة أو أكثر فى كل عام لدراسة الموقف الشامل للمسلمين ، كما تقوم لجنة الافتاء بالأعمال الرئيسية الهامة ، مثل اقرار طباعة المصاحف ، واصدار الفتاوى الشرعية فى الجلل الهام من الأمور التى تخص مسلمى الاتحاد السوفيتى.

جميعا أو توحد الشعائر بينهم ، أو فى قضايا خاصة مثل قضايا الشيعة والسنة ٠

وبالاضافة الى لجنة الافتاء ، توجد لجنة الاتصال الخارجى لجميع المجالس الاسلامية ، كما يوجد مجلس روحى أعلى للمسلمين يضم ٥٠ شخصا من العلماء والمتفقهين فى الدين ، ويجتمع مرة كل خمس سنوات ويضم الجمعية الدينية الاسلامية ودار الشورى التابعة لها ٠

النشاط الروحى للمجالس الاسلامية :

لقد كان انشاء هذه المجالس يمثل دفعة قوية للحياة الروحية للمسلمين فى جميع أجزاء الاتحاد السوفيتى ٠ ويرأسها علماء أفاضل فاقت شهرتهم حدود بلادهم ، وأصبحوا معروفين فى العديد من البلاد العربية ٠ فالمجلس الاسلامى للجزء الأوروبى من الاتحاد السوفيتى وسيبريا يرأسه المفتى « الحافظ كلام الله شاكر بن شيخ الاسلام خيالدينوف » والذى يعتبر اليوم كتابه « الدين والعقيدة » أحد المراجع الأساسية لدارسى الدين ، والذى شارك فى العديد من المؤتمرات العالمية الاسلامية ٠ أما المجلس الاسلامى لأسيا الوسطى وكازاخستان الذى يرعى الشئون الروحية لعشرة ملايين من المسلمين ينتشرون فى خمس جمهوريات، وبالتالى فهو أكبر تلك المجالس ، فيرأسه المفتى ضياء الدين خان بن ايشان بابا خان بن عبد المجيد خان والذى ينحدر من أسرة تولت الافتاء أبا من جد فى هذه المناطق ٠ ويفخر المفتى الحالى بأنه قد حفظ القرآن كله فى سن الثالثة عشرة ، ونال فى السعودية ميدالية لبراعته فى تلاوة القرآن ، كما أدى فريضة الحج ست مرات ٠ وهو شخصية اسلامية معروفة ذو صلات نشطة مع كلية الدراسات الاسلامية بجامعة الأزهر ٠ وهو بالاضافة الى ذلك رئيس علماء المسلمين فى منطقته ، وعضو فى لجنة السلام السوفيتية ، وفى رئاسة لجنة التضامن الافريقى الآسيوى ، ورئيس قسم العلاقات الخارجية فى المجلس الأعلى للمسلمين فى الاتحاد السوفيتى ٠ ويرأس المفتى محمد حاجى قربانوف المجلس الاسلامى لمسلمى شمال القوقاز ٠ أما المجلس الاسلامى لمنطقة ما وراء القوقاز فيرأسه شيخ الاسلام سليمان زادة على أغا سليمان أوغلى ٠

وقد نشطت المجالس بفضل قياداتها من جهة ، وبفضل استمرار مراجعتها من جانب جماهير المسلمين التى تنتخبها فى مؤتمراتها من جهة

أخرى ، لحل جميع المشاكل الروحية التى تهم المسلمين كافة ٠

وكانت من أول المشاكل التى قابلت القيادات الدينية توحيد مواعيد الصوم والأعياد ، وبيان مواعيد الصلاة ، وعموما كل التقويم الذى يهم المسلم ٠ فالمسلمون يقطنون بلادا مترامية الأطراف ولا يتيسر للعديد منهم للظروف الجوية أن يرصد القمر أو أن يتبين فى كثير من الأحيان مطلع الشمس وبزوغ الفجر ٠ ولذلك استعانت المجالس الاسلامية بمعهد النظريات الفلكية لأكاديمة للعلوم السوفيتية لتصدر سنويا التقويم القمرى الذى يحدد المواعيد الهامة لدى المسلمين ، فتصبح أعيادهم فى موعد واحد ، وصلواتهم فى أوقاتها ، وصيامهم فى المواعيد المحددة له ، ويتعرفون على كل المناسبات الاسلامية كمولد النبى صلى الله عليه وسلم ونصف شعبان وليلة الاسراء والمعراج وهكذا ٠

وأشرفت على تنظيم بعثات الحج السنوية الى الأراضى المقدسة وتنظيم لقاء المسلمين خلاله بأخوانهم فى البلاد الأخرى ، وأتاحت لهم بهذا أن يحيوا تقليدا قديما عندهم باحضار قدر من مياه زمزم واهداء القليل منها لأحبابهم وأفراد أسرهم ٠

أما المجلس الاسلامى لآسيا الوسطى فتتسع دائرة نشاطه عن غيره باعتبار العدد الأكبر والكبير من المسلمين الذين يقعون تحت رعايته ٠ ولذلك يحوى عددا من الادارات ، لكل مسئوليتها ونشاطها ٠ فمنها ادارة النشر وأخرى لتدريب رجال الدين وثالثة للعلاقات الخارجية ، ورابعة للآثار الاسلامية ٠٠ وهكذا ٠

واذا راجعنا بعض أعمال ادارة النشر لاتضح مدى الجهد الذى تقوم به فى نشر العقيدة وتثبيتها لدى المسلمين ٠

لقد طبع القرآن قبل الثورة الاشتراكية عددا من المرات وبخطوط مختلفة منها طبع بخارى الذى كان بخط النسخ المعروف فيما وراء النهر ٠ وفى عام ١٩١٤ طبع مرة أخرى فى طشقند بكتابة الخطاط الشهير فى عصره ميرزا هاشم الخوجندى ٠ وبناء على رغبة المسلمين رأت الادارة فى عام ١٩٥٥ أن تؤلف لجنة خاصة لاختيار نسخ من المصاحف ، واختارت عندئذ نسخة طبعت بمدينة فازان عام ١٩٠٨ فجرى طبع المصحف على

أساسها . وفى ١٩٦١ اختارت اللجنة أن تعيد طباعة القرآن على أساس النسخة التى اعترفت بها مشيخة الأزهر الشريف . وفى مناسبة الاستعداد للاحتفال بمرور ١٤ قرنا من الزمان على نزول القرآن الكريم ، قررت اللجنة اجراء طبع جديد واختارت أن يكون الأصل هذه المرة المصحف المطبوع فى طشقند بخط ميرزا هاشم السابق الاشارة اليه بعد التصحيح والتهذيب الدقيق من طرف أشد قراء وحفاظ أوزبكستان ، وتم طبعه فى عام ١٩٦٩ بحجمين صغير وكبير بمطبعة الدولة فى طشقند .

ولمناسبة مرور ١٢٠٠ سنة على مولد اسماعيل البخارى المفكر الاسلامى الكبير ، أصدرت الادارة كتابه « **الأدب المفرد** » بمقدمة من المفتى احياء لتعاليم هذا العالم الكبير ، كما أصدرت فى نفس الوقت تقريبا كتابا لاسماعيل مخدوم ستييف نائب رئيس الادارة الدينية عن « **مصحف عثمان** » .

ولعل أكبر مساهمة فى التعريف بالدين تقوم به تلك الادارة هو اصدارها **لمجلة** « **مسلمو الشرق السوفيتى** » باللغتين العربية والأوزبكية . وبلغ نجاحها فى داخل الاتحاد السوفيتى وخارجه درجة كبيرة جعلت الادارة تدرس بناء على طلب القراء اصدارها باللغات الفرنسية والانجليزية كذلك . ولعل مراجعة لبعض ما جاء بأعداد مختلفة من تلك المجلة تبرز أسباب نجاحها الواسع فى رسالتها .

ففى تقديمها للقراء فى عددها الأول يحدد المجلس الاسلامى هدفها بأنها مجلة اسلامية تعنى بالعرض الأمين لحياة المسلمين فى آسيا الوسطى وباقى الاتحاد السوفيتى وصلاتهم بالعالم . وتقوم بالتعليق والشرح على مقتطفات من القرآن والحديث لنشر المعرفة الصادقة بأمور الدين ، كما تعالج الأمور المتصلة بالحياة الروحية للمسلمين ، وتنقل اليهم أخبار التقدم فى الحياة الاقتصادية والثقافية كذلك .

وقد صدق المجلس فيما ذكر ، أو صدق محررو المجلة فيما كان عليهم أن يقوموا به . ففى عددها الأول تقدم مقالا عن الذكرى الـ ١٤٠٠ لنزول القرآن الكريم ، ومغزى نزوله على الرسول ، وما أراد الله من عباده بهدايتهم على يد سيدنا محمد . وفى العدد الثانى تقرأ مقالا بقلم المفتى ضياء الدين عن حياة وتعاليم الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان مؤسس

المذهب الحنفى فى الاسلام ٠ وتشعر من القراءة كم يقدر المسلمون هناك هذا الامام من أئمة المسلمين ويتبع معظمهم مذهبه ٠ ولكن يلحق بهذا فى عدد آخر مقال عن حياة الامام محمد بن ادريس الشافعى يشرح ما أضافه الشافعى للعبادة ويتحدث عن كتابه « أصول الفقه » وعن فهمه للقرآن والحديث وكذلك موهبته فى الشعر والبلاغة والكلام ٠ وتلتقط من المقال أن عديدا من المسلمين فى شمال القوقاز يتبعون المذهب الشافعى ٠ ولا يقل الاهتمام بالامام مالك بن أنس عن سابقيه فتجد مقالا عنه وعن أعماله وتفسيره وما أضافه لأصول العبادة فى العدد الخامس ٠

ولا تقف الكتابة عند حدود التاريخ للائمة الكبار فحسب بل يتعدى ذلك الى سير العلماء الآخرين من أبناء المنطقة ٠ فيفرد أحد الأعداد مجالا لحديث مطول عن العالم محمود الزمخشرى من القرن الحادى عشر المولود فى خوارزم ، وعن الخمسين كتابا فى التفسير التى ألفها ، وعن الفترة الطويلة التى قضاها من حياته فى مكة المكرمة حتى أخرج كتابه « تفسير الكشاف » المشهور بين المسلمين كافة ٠ ومقال آخر عن أبو النصر الفارابى ، وحديث آخر عن حياة المسلمين فى العصور السابقة وهكذا ٠

ولا تهمل المجلة الحديث عن انطباعات المسلمين المسافرين الى الحج وعن لقائهم ومناقشاتهم وما تبادلوا من آراء مع المسلمين من بلاد أخرى ٠ وتنقل الى القراء الاخبار الجارية عن الحياة الروحية لمختلف مجموعاتهم ، وعن مدارس ومعاهد اعداد رجال الدين ، وعن المناسبات ذات الصفة الخاصة مثل العيد الـ ١٥٠٠ لمدينة سمرقند ، وعن المؤتمرات الاسلامية فى الخارج والداخل ، أى أنها لسان حال للمسلمين فى هذه المناطق بالفعل ٠

وقد حرص المجلس الاسلامى لآسيا الوسطى وكازاخستان على **تأسيس مكتبة عامة** للمسلمين تضم الآن ما يقرب من ٢٥٫٠٠٠ مجلد وكتاب معظمها بالطبع يدور حول تعاليم الاسلام والشريعة ، كما حرص على أن يجمع كل المخطوطات التى صدرت عن السلف الصالح من العلماء بحيث يجمع لديه ما يربو على ٢٠٠٠ مخطوط منها ٠ وتتبادل المكتبة الرسائل والصلات مع كل المكتبات الاسلامية فى العالم ٠

اعداد رجال الدين :

فى وسط مدينة بخارى القديمة ، وقريبا من مئذنة كالان الشهيرة

يوجد بناء من طابقين يدعى مدرسة « مير عرب » يرجع تاريخ بنائها الى عام ١٥٣٥ ميلادية ، حيث سماها بهذا الاسم وحاضر فيها لجميع علماء بخارى الأمير الشيخ سيد عبد الله اليمنى • وقد أتت على المدرسة عوائد الزمن ولكن أعيد تعميرها بعد الحرب العالمية الثانية ، واستخدامها لتدريب وتعليم رجال الدين تحت الاشراف المباشر للمجلس الاسلامى لآسيا الوسطى •

ويوفر المجلس الاسلامى هيئة التدريس ويتولى أمر اعاشتهم ، كما يدفع منحة شهرية للطلاب ، ذلك بالاضافة الى ما اصطلحت جمعيات المسلمين عليه بأن تدفع شهريا مبلغا قد يصل الى ١٠٠ روبل للأسرة التى ينخرط أحد أبنائها فى سلك المدرسة •

ويتقدم الشباب الراغبون فى تكريس حياتهم للخدمة الدينية لتعقد بينهم مسابقات يتم على أساسها اختيار العدد المطلوب منهم • وكقاعدة ، فان كل متقدم يجب ألا يقل عمره عن ١٨ عاما ، وأن يكون قد تعدى مرحلة التعليم الثانوى بنجاح • كما تلعب تزكية الجمعيات الدينية للشباب دورها فى اختيارهم بالاضافة الى نتائج المسابقات •

وتستمر الدراسة لسبع سنوات يقيم الطلبة أثناءها طوال العام الدراسى فى المدرسة • ويتلقون دراسة شاملة للتعاليم الدينية أهمها حفظ القرآن وقواعد تلاوته وتفسيره ، وسيرة النبى ودراسة الحديث ، وتاريخ الاسلام والشريعة والفقه • هذا ويعطى قدر كبير من الاهتمام بدراسة اللغة العربية لغة القرآن • كما يدرس الطلبة بالاضافة الى المواد الدراسية الدينية مواد أخرى ، هى الجغرافيا وعلم الاجتماع وتاريخ الشعوب والاقتصاد السياسى واللغة والأدب الأوزبكى •

وللمدرسة جامعها الخاص حيث لا يؤدى الطلبة الفرائض الخمس فحسب ، بل يتمرنون على امامة الصلاة ، والقاء المواعظ بحيث يتوفر لهم من ذلك التدريب العملى •

أما فى الأجازة الصيفية التى تمتد أربع شهور من مايو الى سبتمبر، فيتفرق الطلبة الى المساجد فى الجهات النائية ليلموا بحياة المسلمين

وينقلوا اليهم ما تعلموه فى المدرسة ، وفى نفس الوقت يكتسبون الخبرة والتدريب من ممارسة الشعائر الدينية تحت قيادة علماء تلك المناطق .

وقد حدث تغيير كبير فى عام ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ اذ افتتحت المدرسة مجموعة بها للشيعة بعد أن كانت قاصرة على أبناء السنة فقط .

ويعتز المسلمون فى الاتحاد السوفيتى بخريجى تلك المدرسة اذ يعيشون فى وظائف الأئمة والخطباء فى المساجد ، ونواب للأئمة أو فى المجالس الاسلامية ذاتها .

كما ترسل المجالس هؤلاء الذين يظهرون تفوقا خاصا لاستكمال دراستهم فى تاريخ الاسلام والشريعة والفقه والفلسفة الاسلامية فى أكبر المعاهد الدراسية فى العالم الاسلامى . فمنهم من يذهب الى الأزهر الشريف ، ومن يوفد الى كلية الشريعة بجامعة القيروان بالمغرب ، وجامعة مدينة البيضاء الليبية ، وجامعة دمشق وغيرها .

أما هيئة التدريس فبالاضافة الى أن العديدين منها قد تخرجوا أو درسوا بأشهر الجامعات الاسلامية ، فانهم حريصون طول الوقت على الاستفادة من خبرات تلك الجامعات فى تحسين وتطوير تدريس كل العلوم الاسلامية بالمدرسة .

وليست مدرسة « مير عرب » ببخارى الوحيدة فى هذا الصدد ، فهناك مدرسة « برافد خان » فى طشقند والتى يرجع تاريخها الى ١٠٠٠ عام تقريبا ، وعديد آخر من المدارس التى تعنى بالتربية الدينية واعداد رجال الدين .

هذا وتقوم الادارة الروحية فى الوقت الحاضر بالاعداد لافتتاح معهد اسلامى جديد فى طشقند سيكون معهدا اسلاميا عاليا يعد رجال الدين ذوى التخصص العالى .

الحياة الروحية للمسلمين :

قد يجد القارىء فيما سبق ضمانا وأمانا لأحوال الدعوة الاسلامية من حيث تنظيمها وامكان تقدمها واتاحة الفرص لها لتتسير فى يسر ودون عقبات ، بل وأن تتقدم بين المسلمين .

ومع ذلك فقد يتساءل البعض ما اذا كان ذلك ينعكس فى حياة المسلمين اليومية ، فى أدائهم للفرائض ، فى الصلات الأسرية ، فى الزواج والطلاق ، فى الصيام والزكاة ، الى آخر ما تتطلبه العقيدة من المؤمنين ٠ والواقع أن استعراضا سريعا لهذا كفيل بأن يضع الصورة الصحيحة أمام القارىء ، وأن يجعله يلمس بنفسه ، ومن الحقائق المادية كيف أمكن للمجتمع أن يحقق حياة عقائدية هانئة للمسلمين ٠

الصلاة :

سبق أن أوضحنا كيف تصدر المجالس الاسلامية سنويا التقويم الهجرى بكافة الأيام ذات المناسبات الخاصة عند المسلمين ٠ ويحوى هذا التقويم كذلك مواعيد الفجر والشروق والغروب ومواعيد الصلاة فى كافة أجزاء تلك البلاد المترامية الأطراف ٠

كما أن الجهد الذى بذلته الحكومة السوفيتية فور قيام الثورة فى اصلاح كل الآثار الاسلامية ، واعادة بناء المساجد والمدارس الدينية ، وما قامت به المجالس الاسلامية لمختلف المناطق بعد ذلك من صيانة للمساجد وتوسيع للعديد منها ، أدى الى أن تتوفر فى جميع الأماكن وفى معظم المدن الكبرى بالاتحاد السوفيتى مساجد عديدة تتيح للمؤمنين أداء الفرائض فى كل الأوقات ٠ هناك فى موسكو ولنينجراد وغيرها من سائر المدن الكبرى مساجد يقوم المسلمون السوفيت وكذلك زوار البلاد والمقيمين بها من مسلمين من بلاد أخرى بأداء الفرائض جنبا الى جنب ٠ أما حيث توجد التجمعات الاسلامية فتكثر المساجد وتتعدد الى درجة أنه يوجد فى باكو عاصمة أذربيجان ٢٤ مسجدا كبيرا وأكثر من ١٠٠ جامع صغير نسبيا ٠ ويوجد فى طشقند مقر المجلس الاسلامى لآسيا الوسطى ١٥ مسجدا كبيرا وحوالى الـ ١٠٠ مسجد صغير كذلك ٠ ويقوم عديد من المساجد مجاورا لأضرحة الخالدين من السلف الصالح ٠

ويؤدى معظم العاملين فى المصانع الصلاة فى منازلهم وبين أولادهم قبل بداية العمل وبعد الانتهاء منه ٠ ولكن العاملين فى الزراعة شأن كل بلاد العالم فيؤدون الصلاة فى كل الأوقات وفى أى مسجد قريب ، أو جماعة مع بعضهم فى موقع العمل ٠ أما يوم الجمعة الذى يعتبر فى كل مكان اسلامى مناسبة لتلاقى المسلمين وتجمعهم فتكاد تزدحم المساجد جميعا

بروادها • وقد يثير فى أذن الغريب نوعا من الشجن الدينى الأثير الى النفس أن يستمع الى المؤذن وهو ينادى الى الصلاة بلغة عربية سليمة مكررا التكبير والشهادتين ، ثم الامام وهو يتلو أثناء الصلاة القرآن جهارا بلغة عربية سليمة تعيد الى قلبه ذات المشاعر التى يشعر بها فى أى بلد اسلامى آخر •

ومن عادة المسلمين فى الاتحاد السوفيتى ، وخاصة فى مناطق تجمعهم أن يخلدوا بعد صلاة الجمعة الى اجتماع دينى مشترك يتولى فيه امام المسجد مذاكرة اخوانه المؤمنين فى أحوالهم الدينية والرد على تساؤلاتهم ، وفى أحوالهم المعيشية وظروفها ، ويبلغهم الفتاوى والتفسيرات التى توجهها لهم المجالس الاسلامية • وتتم فى نفس الوقت بين الحين والآخر جمع التبرعات التى يعطيها المؤمنين طواعية وبكل الرغبة لاقامة واصلاح وصيانة مساجدهم والانفاق على كل مظاهر الحياة الدينية لهم • كما يحدث كثيرا أن يزورهم مندوبون عن المجالس الاسلامية يرسلون من قبلها للاطمئنان على سلامة أداء الشعائر وكفاءة العاملين فى امامة الجماهير والدعوة للاسلام بينهم •

الشيعة والسنة :

ويقودنا الحديث عن الصلاة كأحد الشعائر الأساسية الى موضوع الشيعة والسنة والصلة بين هاتين الطائفتين من المسلمين •

لقد ظل الخلاف الحاد بينهما قرونا عديدة شأنه فى الكثير من المناطق الاسلامية التى يتواجدان فيها سويا • وقد حرصت الحكومة القيصرية وأتباعها من رجال الدين المسلمين فى تلك العصور على استمرار اذكاء روح العداوة والفرقة فيما بينهم • وقد هال ذلك الوضع عديدا من رجال الدين المخلصين ، كما مثل مشكلة كبرى أمام هؤلاء منهم الذين كانوا يرون صلاح معيشة المسلمين جميعا شيعة كانوا أو سنيين فى الخلاص من سيطرة القيصرية • ولعلنا نذكر هنا صيحة أحدهم وهو المعلم والفيلسوف **الأذربيجانى ميرزا فتالى أخوندوف** الذى كتب يخاطب مسلمى القوقاز حيث الانقسام كان أكبر ما يمكن يقول : « ان المسلمين الذين يقطنون القوقاز ينقسمون الى طائفتين ، نصف منهم من الشيعة ، والنصف الآخر من السنيين ، يكره الأولون الآخرين ، كما يبادلهم هؤلاء كراهية بكراهية •

ان التناقض والعداوة الحادة قائمة بين كل منهما • انه لا يطيق أحدهما أن يستمع الى الآخر • كيف يمكن اذن بحق القرآن أن تتحقق الوحدة بينهما » وكان يعني تحقيق الوحدة حتى لا يكون ذلك الخلاف الشديد عقبة أمام نشوء وتعاظم الوعى الوطنى والطبقى ضد القيصرية • وقد عاون الثوريون الاشتراكيون العاملون فى تلك المناطق للتقليل من تلك الخلافات ومحاولة الوصول الى حد أدنى من الاتفاق فيما بين الطائفتين يتيح لهما أن تتحدا فى الكفاح ضد القيصرية •

ولقد تغير الوضع تماما بعد الثورة وتحرر المسلمون جميعا وان كان ذلك قد استغرق بعض الوقت • وقد عبر عن ضرورة تغير الأوضاع بعد الثورة قول أحد قادة الشيعة هو **المولى جواد زينالوف** « ان سياسة دولتنا أن نجمع سويا كل الشعوب بصرف النظر عن الأصل أو الدين • وعلينا اذن ألا نقسم الأذربيجانيين الى طوائف من الشيعة والسنة » •

لقد كان لكل طائفة فيما قبل الثورة مساجدها التى كان لا يمكن أن يغشاها أتباع الطائفة الآخرين باعتبار أن تلك أماكن « معادية » • وان الفرائض لا تؤدى فيها حسبما يجب أن يكون • ولكنا نجد اليوم فى عديد من المدن والقرى نفس المسجد يستعمله الشيعة والسنيون وتتكون ادارته من ممثلين عن كل طائفة فى تعاون كامل دون تصادم ، وان اجتمعت كل منهما على حدة فللسنين « امامهم » وللشيعة « الآخوند » الخاص بهم • ويؤدى هذا الاقتراب — وان كان قد بدأ على حذر — بين الطائفتين الى اقتراب أكثر وأكثر • وليس غريبا الآن أن يلجأ الشيعة الى امام سنى أو العكس لأداء أى طقس من الطقوس الدينية ، كأن يؤم « الامام » مصلين من الشيعة ، أو أن يؤم « الآخوند » مصلين من السنيين •

وتضيف فى هذا الأمر ما هو معروف لدى المسلمين جميعا من طقوس يقوم بها الشيعة خلال شهر محرم باعتباره الشهر الذى قتل فيه الامام الحسين ، واعتباره شهر الأحزان ، وما جرى التقليد بينهم على ممارسة التعذيب الذاتى تكفيرا عن قتله • لقد كان ذلك يمارس بين الشيعة من مسلمى الاتحاد السوفيتى شأن الشيعة فى كل مكان • وكثيرا ما كان يؤدى هذا التعذيب الذاتى الى اصابات خطيرة بل والى الموت أحيانا • وقد تدارس المجلس الاسلامى للقوقاز هذا الوضع وانتهى الى أنه ليس من العقل أو مما يفرضه الدين أن يصل المؤمنون فى اظهار حزنهم الى الحد الذى قد

يؤدى الى الموت • وبدأ يباشر دعوته بين الشيعة على أساس تعاليم الدين والقرآن والحديث حتى نجح تماما فى أن يقلع هؤلاء عن كل مظاهر التعذيب وان بقيت كل مشاهد ممارسة الحزن على وفاة الامام الحسين خلال شهر المحرم • واعتبر المجلس أن نجاحه قد تم حين وصل الى أن يشارك أهل السنة اخوانهم الشيعة طقوسهم فى هذا الشأن •

تحفيظ القرآن :

تنتشر فى آسيا الوسطى منذ عصور سابقة عادة حفظ القرآن عن ظهر قلب ، وتجويده كذلك • وقد سبق أن أشرنا الى أن المفتى ضياء الدين خان قد حفظ القرآن ورتله كاملا وهو فى سن الثالثة عشرة • كما أن نائبه فى رياسة المجلس الاسلامى لمسلمى آسيا الوسطى وكازاخستان اسماعيل مخدوم ساتيبيف قد حفظ القرآن ورتله وفق كل قواعد التجويد بكل القراءات منذ سن مبكر •

وعدا مدارس اعداد رجال الدين ودورها فى تحفيظ القرآن بلغته الأصلية فان الأئمة والخطباء يقومون فى المساجد على تحفيظ القرآن لكل النشء الذى يوجهه أهله من المسلمين الى ذلك • ويعتبر حفظ القرآن وسيلة للنجاح فى التزكية وامتحانات المسابقة التى تعقد لقبول الشباب فى مدارس اعداد رجال الدين •

وكثيرا ما تعقد المسابقات بين حفظة القرآن فى ترتيله ، ومن ينجح فى ذلك ، وينال تقدير المحكمين يعطى لقب « قارىء » الذى يتيح لصاحبه مركزا مرموقا بين المسلمين •

ويشترك « القارئون » من آسيا الوسطى فى عديد من المسابقات العالمية لترتيل القرآن • وعندما عقدت مسابقة عالمية فى باكستان فى سنة ١٩٦٨ بمناسبة الذكرى الـ ١٤٠٠ لنزول القرآن الكريم ، شارك فيها هؤلاء ، وحققوا فيها نجاحا ملحوظا الى حد أن أحدهم وهو « رحمة الله القارىء فاسيموف » حصل على أحد الجوائز العليا بين المرتلين من مختلف أرجاء العالم الاسلامى •

الصيام والزكاة وصلاة العيد :

ان لشهر رمضان المعظم مكانته بين مسلمى الاتحاد السوفييتى كما

هو بين المسلمين فى العالم أجمع • ويبدأ الاستعداد لهذا الشهر الكريم من أول سابقه شهر شعبان حيث تعقد الندوات فى المساجد وتلقى المواعظ عن مغزى الصيام وحكمته وأصول أداء الفريضة •

وما أن يأتى رمضان حتى تبدأ كل العادات التى تكونت منذ مئات السنين فى الكشف عن نفسها ، مما يعطى الشهر طابعه الخاص • فالأطفال يدورون على المنازل يرددون الأغانى التقليدية تهنىء المسلمين بحلول شهر الصيام ، داعية لهم بالصحة والسعادة وسائلة الله أن يهب صاحب المنزل ولدا صالحا ، وينالون كالمعتاد جزاءهم من صاحب البيت فى صورة حلوى وهدايا لكل منهم • أما الكبار فيؤمون المسجد بعد الافطار ليؤدوا سويا صلاة العشاء وصلاة « التراويح » ويجتمع فى المساجد الكبيرة قراء القرآن (قارىء) وحفظته (حافظ) ليرتلوا القرآن كله بعد التراويح على مدار الشهر • وتختلف عادة تلاوة القرآن من مسجد لآخر • ففى مساجد تلاشيخ ، وراكات وخوجا ألمبادور فى طشقند يختم القرآن مرة كل عشرة أيام من القراء والحفظة ، بينما يطول ختمه الى الشهر كله فى مساجد الشيخ مصلح الدين فى لينيناباد •

أما « الافطار » فهو مناسبة اجتماعية حيث يتبادل المسلمون دعوة بعضهم البعض اليه طوال الشهر • كما يحرص الأبناء الذين يعيشون لسبب أو آخر متفرقين أن يتم اجتماع الأسرة كلها حول الوالدين لأكثر من افطار خلال الشهر • وفى عديد من القرى قد يتفق السكان فيما بينهم بحيث يقدم كل منهم الافطار للباقين مرة على الأقل خلال الشهر • ويعقب لقاءهم هذا صلاة الجماعة والتراويح سويا ثم تلاوة القرآن أو الاستماع اليه من حفظته •

وتتباين الأوضاع كذلك بعض الشىء فى الاحتفال بليلة القدر • ففى الجزء الأوربى وسيبيريا وكازاخستان وبعض مناطق شمال القوقاز تحيى الليلة عادة فى المساجد حيث تلقى المواعظ ، بينما يحييها التتار والأوزبك فى منازلهم حيث يتبادلون قراءة القرآن والصلاة والدعاء ابتغاء مرضاة الله وبركاته •

وما أن تحل ليلة عيد الفطر فى نهاية الشهر حتى يسبق الشيوخ الباقون ابتداء من منتصف الليل يقضونها فى المساجد ، بينما تجد الأقل

سنا فى الصباح الباكر وقد توجهوا فى جماعات تردد التكبـــير طوال الطريق • وعادة ما يؤم شيخ الاسلام وكل مفتى قومه فى أحـد المساجد الكبيرة فى منطقته لصلاة العيد • واذ تنتهى الصـلاة ، يتبادل المسلمون داخل المسجد التهنئة بالعيد ، كمـا تقرأ عليهم التهـانى التى وصلتهم تلغرافيا من المسلمين فى مساجد أخرى • ثم ينصرفون ليتجه العديد منهم لزيارة قبور موتاهم ، والدعاء لهم ثم يعودون الى بيوتهم يتبادلون الزيارات وتناول الحلوى • وكثيرا ما تجتمع المجموعات منهم لغذاء مشترك فى بيت أحدهم ، بينما تكون الساحات حول المساجد قد تحولت الى سوق صغيرة من الحوانيت العديدة التى تبيع الحلوى الشرقية ، واللعب المحلية ، وعديد من الاشياء الصغيرة التى يعتز بشرائها الشباب والاطفال فى مناسبة العيد• هذا وتستمر احتفالات الأعياد سواء كان عيد الفطر أم عيد الأضحى لمـدة ثلاثة أيام •

وفى مناسبة عيد الأضحى الذى ينتشر فيه بين المسلمين القـادرين تقديم الأضاحى قربانا الى الله تعالى ، وتقليدا منذ ألهم الله سبحانه وتعالى سيدنا ابراهيم أن يفدى ابنه بكبش كبير ، فانك تجد المسلمين فى آسيا الوسطى وقد تجمع كل من شاء منهم ومعه الفداء التى اعتزم التضحية به فى الساحة أمام المسجد ، لتذبح الضحية ويوزع لحمها على الحاضرين •

أما **الزكاة** فقد تم لها قدر من التطوير بعد الثورة الاشتراكية لانظن الا أن المسلمين فى كل بقاع الأرض سوف يرضون عنه ويقبلونه ، لمـا يحويه التطوير الذى حدث من ملاءمة بين تعاليم الدين والظروف التى صار يعيشها المؤمنون • فالمعروف أنه على كل مسلم مؤمن أن يقدم زكاة عنه وعن ماله وعن كل فرد يعوله ، وعلى أن تقدم هذه الزكاة الى مستحقيها من الفقراء فى أى وقت من رمضان المعظم حتى قبل صـلاة العيد ليشعر المسلمون جميعـا أن العيد قد أقبـل وكلهم يرفلون فى حلل السرور ، وحتى لا تطلع شمس العيد الا والجميع فى رضى برحمة الله عليهم • وبعد الثورة الاشتراكية ، واستمرار التوسع فى اقتصاد البـلاد ، واضطراد التزايد فى انتاجية العمل صار يتحسن عاما بعد عام مستوى معيشـة جماهير المسلمين شأنهم شأن باقى جماهير الاتحاد السوفييتى كافة • ولأن الدولة قد أخذت على عاتقها وحققت بالفعل فرصة العمل للجميع ،وانتشرت الكفالة الاجتماعية للعجزة والمسنين ، وتحملت الدولة علاج المرضى فى كل

الأحوال وتحت أى الظروف ، فقد نشأ عن هذا وضع جديد بانعـــدام السائل والمحروم والجائع والفقير ، تلك الطوائف التى أوجب الاســـلام الزكاة عطفا عليهم ومشاركة من اخوانهم القادرين فى محنتهم ، وعونا لهم على الخروج منها • وعندما وصلت الأمور الى هذا الحد دارت المناقشات بين المسلمين عمن يمكن أن تعطى لهم الزكاة ، وتحاجوا فى الأمر كثـــيرا • وقصدت المدارس الاسلامية للتدارس ورأت فى نهاية الامر أن اعطاء زكاة من الأفراد لبعضهم البعض تحت ظل هذه الظروف يمكن أن يؤدى بـــين المترددين وضعاف النفوس — وهم موجودون فى كل مجتمع وعصر — الى استمراء حياة طفيلية غير منتجة يعيشون فيهـــا على حساب صـــدقات الآخرين • ومن ثم كانت فتوى المراكز الاسلامية بألا توزع الصـــدقات بصورة فردية ، بل أن توجه لصندوق المال لجمعيات المسلمين التى تقرر هى أوجه انفاق حصيلته سواء كان ذلك فى صيانة المساجد ، أو فى تدريب رجال الدين ، أو لتدعيم الصلات بين المسلمين واخـــوانهم فى باقى بلاد العالم ، أو تمويل بعثات الحج الى الأماكن المقدسة ، أو نشر المطبوعـــات الدينية ، أو فى النهاية فى مساعدة اخوانهم المسلمين فى بلاد أخرى •

الحج وأمور أخرى :

قد يوضح ما سبق كيف أن المسلمين فى تلك البلاد يمارسون نفس الحياة الدينية بكل ظواهرها ومباهجها التى يمارسها اخوانهم المسلمون فى العديد من بقاع الأرض • ولا تختلف الظواهر المرتبطـــة بالحج عن باقى الظواهر من حيث استقبال العائدين من زيارة الأراضى المقدسة بكل مظاهر الفرح والسرور بحيث تتوالى فى ليال متتالية وفود القـــادمين للتهنئة يسمرون ليلهم سويا فى الاستماع الى ما ينقله الحاج العـــائد اليهم من تفاصيل الرحلة المقدسة ، واللقاء مع اخوانه المسلمين ، ووصفا لمكة والمدينة ولباقى البلاد الاسلامية التى يكون قد زارها فى ذهابه أو عودته • وما زالت التقاليد بينهم تحرص على أن يعود الحاج بعدد من الهدايا للأهـــل والأقارب • وأهم ما يعتزون به وما جرى العرف عليه هو أن يهدى كـــل منهم قطرات من ماء زمزم • وقد يأتى أحدهم بسجادة عليها رسم مكـــة والمدينة لتعلق فى المسجد المحلى وهكذا •

وتحتل ليلة المولد النبوى منزلا خاصا من نفوس المسلمين ولهم فيها تقاليدهم التى توارثوها على مدى السنين • فهم فى تلك الليلـــة عادة ما

يجتمعون فى المساجد الكبرى حيث يستمعون لمقتطفات من سيرة الرسول، وبضع سور من القرآن • ويحرص المسلمون فى آسيا الوسطى على العودة الى ديارهم ليحيوا بقية الليلة فى حفـــــل عائلى يستضيفون فيه جيرانهم والقراء وحفظة القرآن والعلماء والخطباء ، ويشتركون جميعا فى قراءة بعض سور القرآن والاستماع بالذات الى أجزاء من كتاب « الجامع الصاحب » الذى جمعه اسماعيل البخارى •

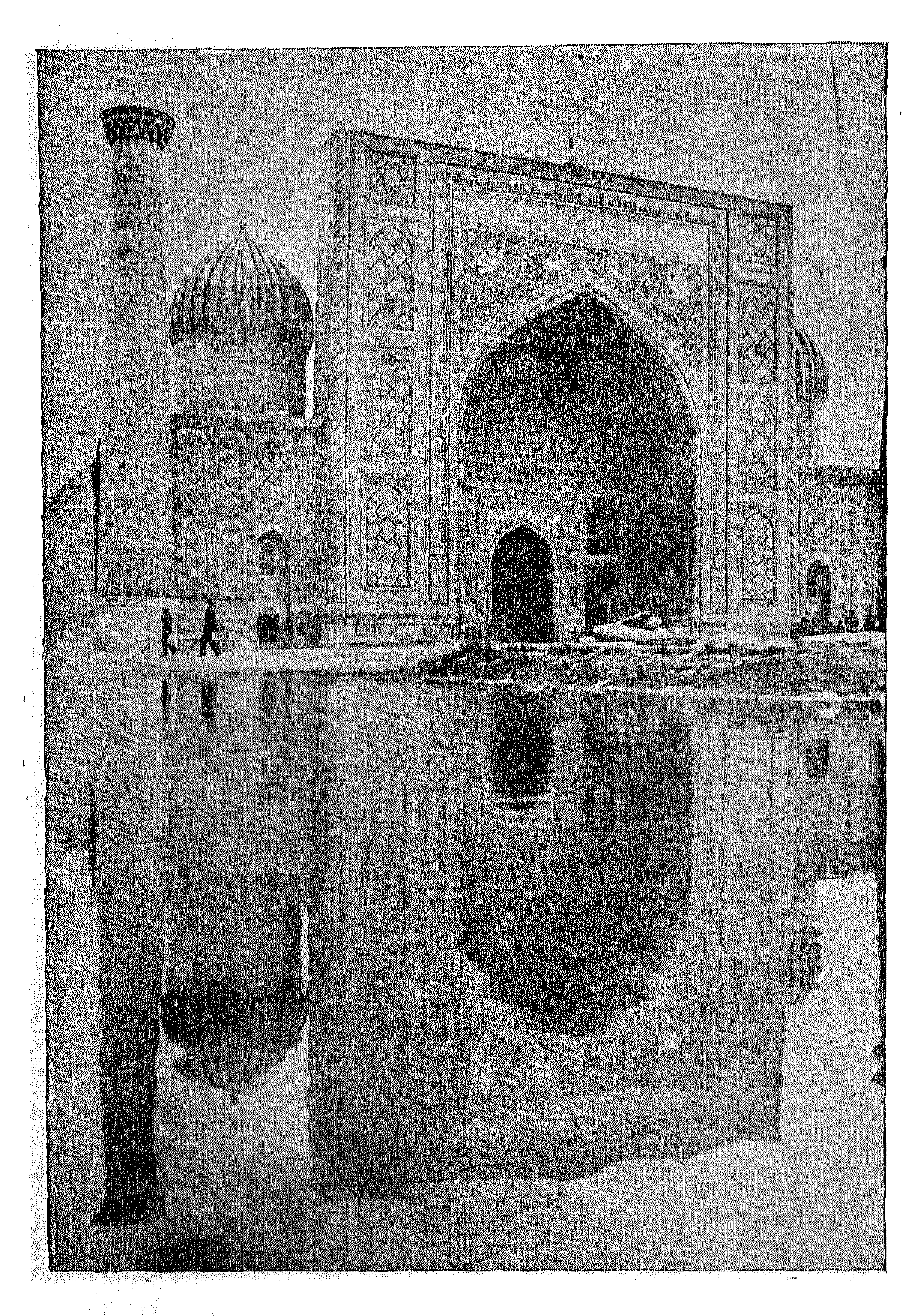
هذا وقد تعرض المسلمون فى الاتحاد السوفييتى لكثير من التشهير المقصود من الدوائر الامبريالية فى مســـائل الزواج ، فقد أعطى طابع الدولة العلمانى واعتمادها فى الأمور الرسمية على الزواج المدنى الى أن يشيع الاستعمار العديد من القصص والخيالات فى هذا الأمر • ولكن واقع الحال ينبىء عن أن المجالس الاسلامية تنتدب فى كل مدينة وقرية كبيرة من تسميه (قاضى) من المتفقهين فى أمور الدين ، يمارس عقد الزواج تبعـــا لأصول الشريعة بين المؤمنين • ولذلك فانك تجد جميع المسلمين عنـــد زواجهم يذهبون الىالادارة المدنية حيث يسجلالعروسان أنفسهم كزوجين، ثم بعد ذلك أو قبله يقيمون احتفالاتهم حسب تقاليدهم حيث يتوج الزواج بعده شرعا حسب الشريعة والسنة فى حضور القاضى الامـــام والخطيب وسائر الأهل والمحبين • هذا ويحرم قانون الدولة تعدد الزوجات تحت أى ظروف ، ولكن للزوج أن يطلق زوجته الأولى فى حالة المرض أو العقم ، وفى هذه الحالة لا تدفع أى رسوم بينما يلزم الراغب أو الراغبة فى الطلاق بالرسوم فى غير ذلك من الحالات • وحكمة فرض الرسوم على راغب الطلاق مثل عديد آخر من الاجراءات انما يكون الهدف منها وضع عدد من المعوقات أمام المطلق حتى يراجع نفسه عند كل عقبة فلعل الصلح يكون مستطاعا ولعل المؤمن يعود عما يصفه الرسول بأنه أبغض الحلال •

* * *

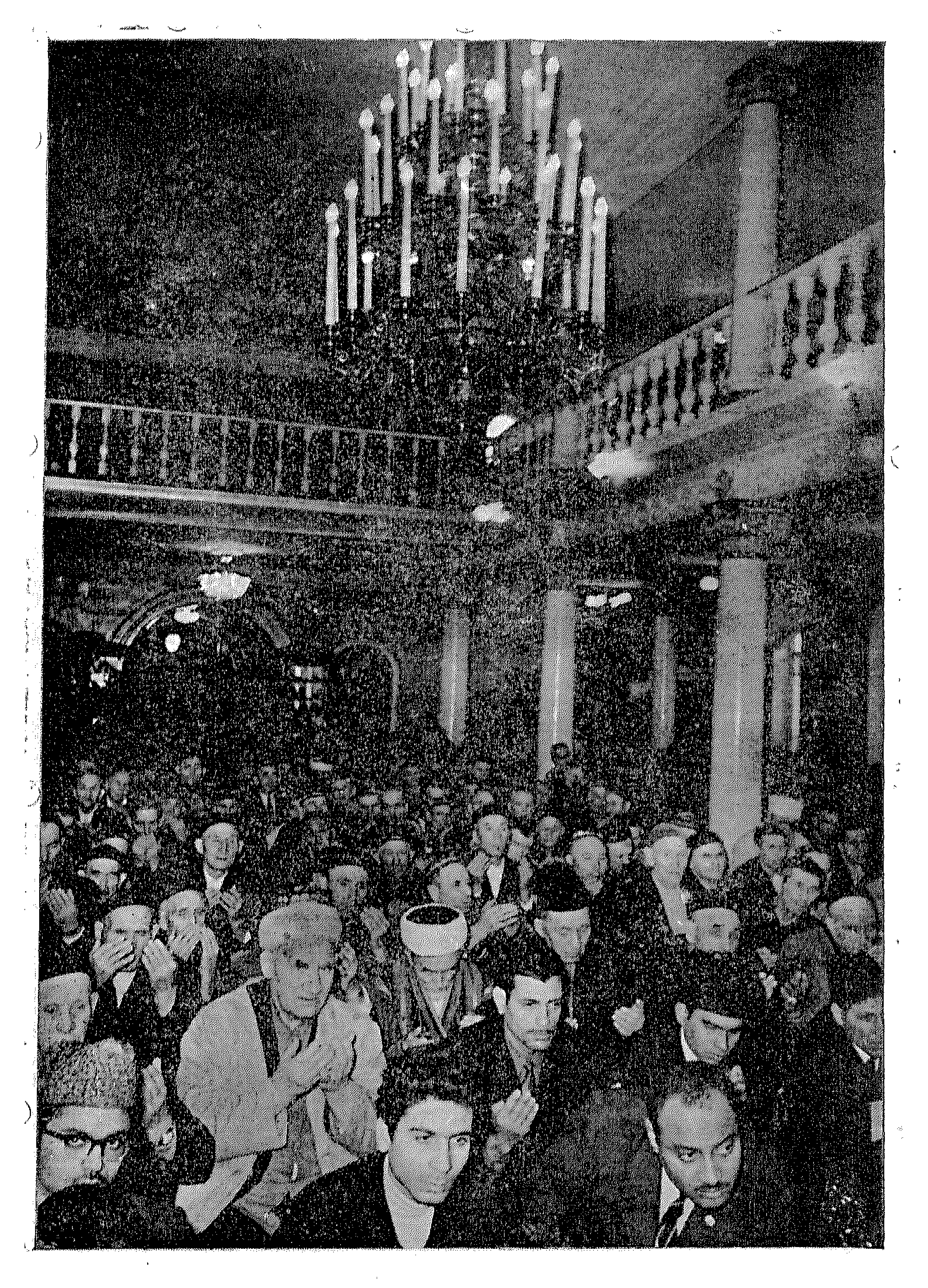
تلك مشاهد من حياة المسلمين فى الاتحاد الســـوفييتى سواء فى تنظيمهم الدينى أو علاقتهم بالدولة أو فى ممارستهم للفرائض والعبادات ، ربما وجد المؤمن فيها ما يطمئنه على أحوال اخوان له فى العقيدة ، وعلى أن الاسلام بخير طالما كان له أئمة يدافعون عنه ، ويجعلون منه دعوة الى الحق• وما كان يمكن للمسلمين فى ظل الاشتراكية أن يكونوا فى غير هذا الحال،

فما دعوة الاسلام ـ وكذلك كل الأديان ـ الا السعى الى أن يعيش المؤمنون اخوة متساندين تنتشر بينهم المحبة ويبتعد عنهم الفقر والجهل والمرض،وأن يكونوا لبعضهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا • وذلك كله ماتدعو اليه الاشتراكية وتعمل على احلاله فى حياة النـــاس محـــل كل مظاهر الاستغلال والقهر والاستعباد التى يمارسها كل من الاستعمار والرجعيـة والرأسمالية •

* * *



مدرسة شير دور – بسمرقند « جمهورية أوزبكستان » منظر المدرسة بعد أن غسلتها الأمطار الكثيفة ، والنادر هطولها فى هذه المناطق



صلاة عيد الفطر بجامع موسكو

الفصل الرابع

شهادات واقعيـــة

دأبت الدوائر الاستعمارية طوال ما يزيد على خمسين عاما من عمر الثورة الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى ، على ترديد الأكاذيب التى لا سند لها عن أحوال المؤمنين تحت الحكم الاشتراكى مدعية ومرددة الادعاء مئات المرات وألوفها أنه لا يصرح باعتناق العقائد ، وأن لا مجال لمؤمن بأى عقيدة أن يؤدى فرائضها ، بل انه يتعرض فى هذا الى الايذاء ، وأن الثورة قد أزالت كل الآثار الدينية من البلاد والى آخره ٠

ولكنه كان أمرا ملحوظا دائما أن الدوائر الاستعمارية دأبت على نشر هذه الأكاذيب ليس فى بلادها هى ، ان كانت حقا حريصة على الاديان والعبادات بل وجهت كل هذه السموم تنفثها فى البلاد التى تخضع لاستثمارها واستغلالها ٠ ولعلنا فى البلاد العربية والاسلامية نذكر تفاصيل تلك الحملات المسعورة ، والهجمات المحمومة على الاتحاد السوفيتى واضطهاده للاسلام والمسلمين ، حتى كادوا من فرط ما يؤلفون ويكتبون وينشرون ، وقد صاروا أكثر اسلاما منا نحن المسلمين وأكثر حرصا على الدين الحنيف من المؤمنين به ٠

لقد بدأوا حملاتهم هذه منذ قيام الدولة الاشتراكية الاولى ، وما زالت الحملات مستمرة حتى اليوم ٠ ولعل المخضرمين فى مصر يذكرون الواقعة الشهيرة فى استفتاء مفتى الديار المصرية فى أوائل العشرينيات اذ أرسلت السفارة البريطانية بسؤال ماكر خبيث يقول « ما قولكم ، دام فضلكم ، فى مذهب يدعى البلشفية ــ بضم الباء ــ يتيح للمرء أن ينكح أمه وأخته ؟ » ٠ ويأتى جواب المفتى على السؤال يقول « اذا كان الحال وفق السؤال ، فالبلشفية حرام » ٠ وتتلقف السفارة الرد ، وتخفى السؤال ومقدمة الجواب ، وتنشر فى أوسع المجالات ، وتكرر النشر بكل الوسائل أن « البلشفية حرام » وكفاها من كل القصة هذا ففيه ما يحقق أغراضها من الوقيعة بين المسلمين والنظام الاشتراكى الجديد ٠ وليس أكثر سندا لها فى هذا من أنها فتوى مفتى المسلمين ٠

وظلت تلك الدعاوى تكرر بصورة وأخرى طوال نصف قرن من عمر الدولة الاشتراكية ، وما زالت حتى اليوم ٠

وآخرها كتاب مدسوس يظهر فى الاسواق العربية بعنوان « القرآن، عقيدته وتعاليمه » ٠ يأخذ نفس شكل الكتب السوفيتية ، ويوقع عليه

كذبا فى النهاية أنه مطبوع بواسطة وكالة « نوفوستى » • وينسب الكتاب الى شخصية رسمية سوفييتية الى « ن• محيى الدينوف ، السفير فى أحد الدول العربية » • وتقرأ الكتاب لتجده لا يشرح عقيدة القرآن أو تعاليمه، بل يجمع أشتاتا من الكلام من هنا وهناك ليهاجم فى النهاية بصورة خبيثة بعضا مما أتى فى كتاب الله الكريم • واستمرارا فى حبك الصورة حتى يتحقق القصد الدنيء من الكتاب يورد أقوالا ومقتطفات ومراجع لا يتيسر للقارىء ــ اذا أراد أن يدقق ــ الحصول عليها ، والتثبت من صحتها •

لقد شرحنا كيف يمنع القانون والدستور السوفيتى المساس بعقيدة المؤمنين أيا كانوا • وفضلا عن ذلك فهل يتصور عقل ألا ينشر السوفييت فى البلاد العربية فى هذا الوقت بالذات الا مثل هذا الكتاب ، وهم الذين تتجمع الجهود الرجعية والمخابرات الغربية لاحداث الوقيعة بينهم وبين العرب حتى يسقط الأخيرون صرعى المؤامرات الاستعمارية وحتى يقفوا وحدهم وأزمة الشرق الاوسط تبلغ الذروة • وهل يتصور عقل ألا يختار لمثل هذا الكتاب ــ ان صح التفكير فيه من جانب السوفيت ــ الا سفير فى أحد البلاد العربية •

ان رائحة المخابرات الغربية تزكم الأنوف فى هذا الكتاب • وما ذلك الاسلوب عليهم بجديد • وقد جربه العرب فى عديد من الكتب التى أصدروها ليدعموا نكسة يونيو ١٩٦٧ ، وما صدر منها يحمل أكاذيب تصل الى حد الفجور •

وتتكرر الصورة من جانب الاستعمار فى البلاد التى ابتليت به ، ليكشف فى الحقيقة عن نواياه الخبيثة بأن ينجح فى دق أسفين قوى بين البلاد الاشتراكية ودعوتها الى الحق والمساواة والأخوة والمحبة بين الناس ، وبيننا نحن الشعوب التى عاش الكثير منها وما زال يعيش البعض حتى اليوم نهبا لاستغلال ثرواته والعبث بمقدراته ، وتسخير أبنائه لصالح حفنة من الرأسماليين • لقد كانت تلك الادعاءات وتكرارها ، والافتراءات وتأكيدها بمثابة الستار الحديدى الفعلى الذى فرضه الاستعمار عشرات السنين بين القوى المعادية له لأنه يخشى اتحادها ففى ذلك الاتحاد القضاء عليه ونهايته •

ولم تقتصر الاشاعات على ما يمكن أن يكون ــ بعد التكرار على طريقة جوبلز ــ فى حدود المقبول ، بل تعداه الى ما لا يمكن عقلا أو عقيدة أو انسانيا أن يستقر فى ضمير انسان • ولقد أهاجت تلك الافتراءات صدور

بعض الحجاج السوفييت حين التقوا باخوانهم فى مناسبة الحج اذ تقص مجموعة منهم حين عادت الى بلادها على اخوانهم فى العقيدة أن حجاجا من بلاد أخرى سألوهم « هل هناك حقا مسلمون في الاتحاد السوفيتى ؟ أليست العبادة ممنوعة ؟ أما زال هناك مسجد قائم فى آسيا الوسطى ؟ بل ان أحد الحجاج مال على أحدهم وهمس فى اذنه مستفسرا عما اذا كان ما سمعه من أن من يصل الى سن الستين فى الاتحاد السوفيتى يذبح ولا يسمح له حتى بالحياة ؟ وغيرها وغيرها من الاسئلة التى كانت بدورها تثير صدور الحجاج منهم ، وهم أصحاب ذلك التاريخ العريق فى الدعوة الاسلامية والعلوم الاسلامية ، وذوو التراث فى الفكر الاسلامى والآثار الاسلامية ، الذى لا يضارعهم فيه العديد من بلاد اسلامية أخرى ٠

وما انتهت الحرب العالمية الثانية ، وشاهد العالم ومن بينه الدول المستعمرة الدور البطولى الأساسى الذى لعبته شعوب الاتحاد السوفيتى فى هزيمة جحافل النازية والقضاء على الفاشستية ، حتى فوجئوا أن بلادا فيها تلك الاوصاف التى لم تسمع من قبل فى التاريخ تستطيع أن تقود حربا وطنية يثبت فيها الشعب رغم كل النكسات فى أولها تماسكه وتمسكه بنظامه الاجتماعى ، واستعداده للبذل والتضحية فى سبيله حتى يتحقق له على المعتدين النصر ٠ كان ذلك مفاجأة جعلت الكثيرين من أبناء تلك الدول يتجهون نحو بلد الاشتراكية الاول ، يستزيدون عنه معرفة واطلاعا ٠ وتوالت البعثات من زوار أو طلاب علم أو راغبى تجارة يروا بأنفسهم ويشاهدوا ليعودوا الى بلادهم بمحصول جديد من المعرفة عن الاشتراكية كنظام اجتماعى داخلى وكسياسة من الاخاء والمحبة مع كل الشعوب وكرغبة فى السلام كالوسيلة الاساسية لتقيم الجماهير حياة تليق ببنى الانسان تعود جهودهم اليهم لا يمتصها استغلالى مستبد أو حرب ضروس ٠

وكانت النتيجة نجاحا ساحقا للاشتراكية على مستوى العالم بحيث صارت أغلبيته اليوم مؤمنة بها ، اما تعيش فى كنفها ، أو ساعية ــ رغم كل حروب المستعمرين وسعارهم الشديد ــ الى الأخذ بها ٠

ولم تكن تلك العلاقات التى تولدت بين الاتحاد السوفيتى وغيره من شعوب العالم بحيث تعرض للفحص نظامه الاجتماعى فحسب ، بل تعدت ذلك الى كل ظواهر الحياة فيه من ثقافة وفن ورياضة وأدب وعلاقات

انسانية واجتماعية وأسرية ، وفوق ذلك كله موقف العقيدة من النظام ، والنظام من العقيدة ٠

ووجد المسلمون فى الاتحاد السوفييتى أن من واجبهم كذلك وقد أهاجت مشاعرهم تلك الاكاذيب التى تقال فى حقهم أن عليهم واجبا فى التعريف بأنفسهم ٠ فبدأت بصورة حثيثة بعثاتهم الى الحج تجعله واجبا لها أن تتعرف على أوسع الدوائر من اخوانهم المسلمين فى تلك المناسبة الدينية ، وأن يزوروا بلادا أخرى سواء فى غدوهم أو عند عودتهم ٠ ولكن جاء الجهد الاكثر تركيزا عندما قررت المجالس الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى من خلال مجلسها الأعلى تكوين قسم للعلاقات الخارجية يكون عمله احداث صلة دائمة ومستمرة مع تجمعات المسلمين ومراكزهم الدينية فى مختلف البلاد ، والاشتراك فى المؤتمرات الاسلامية التى تعقد فى جميع بلاد المعمورة ، والدعوة الى مؤتمرات مماثلة عندهم ، وتبادل الرسائل والدراسات الدينية وكتب التراث ومخطوطاته مع مختلف مراكز البحث الاسلامى فى العالم ، وعديد غيرها من الأعمال التى استهدفت اقتراب قلوب وعقول المؤمنين مع بعضهم البعض ٠

وقد أثمرت هذه السياسة الجديدة النشطة فصار للمنظمات الاسلامية فى الاتحاد السوفييتى علاقات بمثيلاتها فى أكثر من أربعين قطر ٠ وتعددت الزيارات لمناطق المسلمين ، فقد استقبل المجلس الاسلامى لآسيا الوسطى وكازاخستان خلال عام ١٩٦٨ مثلا مائتين من الوفود من بلاد مختلفة بلغ عدد أعضائها ٢٧٩٠ عضوا ٠ وكان من بينها خمس وفود حكومية يرأسها رؤساء حكومات ، ٣٩ مجموعة من الشخصيات العامة ، ١٠ مجموعات من الصحفيين ورجال السياسة ، ذلك عدا ١٥٠ سائحا ٠

ويضاف الى ذلك أن تزايد علاقات الاتحاد السوفيتى مع مختلف البلدان ، وارتفاع عدد طلبة البلاد المختلفة الذين يدرسون به قد جعل المساجد ــ وهى مكان اللقاء الطبيعى بين المسلمين ــ تعج فى عديد من الاوقات بأبناء الجاليات الاجنبية الذين يفدون اليها للصلاة ويختلطون عندئذ باخوانهم المؤمنين السوفيت ، ويتعارفون عليهم ويتذاكرون أمور دينهم ٠ وقد أدت تلك الزيادة فى اعداد المسلمين الأجانب الى اثارة الاهتمام ، فقام مسجد لينينجراد الكبير بحصر لعدد المترددين عليه منهم ، فوجد أن العدد قد وصل فى عام ١٩٦٩ الى ٦٠٠٠ مصليا من المارين بالبلاد أو المقيمين لمدد محدودة ، ذلك عدا عشرات من الطلبة من الجزائر

والمغرب والسودان ، وجمهورية مصر العربية وغيرها من البلاد الاسلامية الذين بحكم اقامتهم للدراسة يؤمون المسجد فى كل أيام الجمعة للصلاة •

وقد أثمرت العلاقات التى أنشئت ، والزيارات التى تمت ، فى تكوين المعرفة الصحيحة بأحوال المسلمين خاصة وقد تعددت الشهادة بذلك من شخصيات لها مكانتها المرموقة بين المسلمين فى أركان الارض • ولا يمكن أن يحاج الاستعمار بعد شهادة هؤلاء فى شيء • وبدأ الضباب ينقشع ، وتعود سماء المسلمين الى صفائها ، هداية وطمأنينة •

فالامام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور محمد محمد الفحام بعد زيارته للاتحاد السوفيتى على رأس وفد من أفاضل العلماء بجامعة الأزهر يصرح لمراسل سوفييتى قائلا : « لقد سررنا لدى معرفتنا بعدم وجود أية عوائق فى وجه أداء الفروض والشعائر الاسلامية فى الاتحـــاد السوفيتى • ولم أكن أعرف قبل زيارتى الى الاتحاد السوفيتى أن المساجد موجودة فى كافة المدن الكبرى • وكان ذلك مبعث دهشتى وبهجتى الى حد كبير • لقـــد أديت الصلاة سويا مع اخوانى من المسلمين المؤمنين ، واستمعــــوا الى موعظتى بقلوب واعية وآذان صـاغية • وتحدث المسلمون السوفيت الى ذاكرين بأنهم أحرار فى ديانتهم يؤدون بكل حرية واجبهم أمام العـــلى القدير ويقيمون ما أمرهم به ولا توضع أمامهم أى عرقلـــة أو عقبة ولا يتعرضون لأى ضغط أو كبت • وأنا أقول من صميم القلب وخالص الفؤاد انى كنت بمعرفة ذلك فرح مغتبط • وعندما زرنا بعض الكولخوزات(١) فى آسيا الوسطى ، علمنا أن الكولخوزين المسلمين يعملـــون فيها اخـــوانا متعاونين يساعد بعضهم البعض ، ويدفع لهم الأجر العالى لقاء جهودهم • وهم يعيشون فى سعادة ورغد ميسور » •

ويضيف فضيلته فى حديث له الى مجلة « روزاليوسف » قـــوله « ان المسلمين هنا (يعنى الاتحاد السوفيتى) يتمتعون بحرية كاملـــة ويستقلون بشئونهم الدينية ، كما يؤدون كل الشـــعائر الاســـلامية • ويسافر المسلمون من الاتحاد السوفيتى للحج سنويا ، كما كنت أسمع كل صباح صوت المؤذن يؤذن للصلاة » •

ولعل حديث الامام الأكبر فى هذا **يكون القول الفصل** • واذا كنا فيما يلى نضيف بتصريحات أخرى من أئمة أفاضل لهم صفاتهم الدينيـــة المرموقة ، فما ذلك الا بمثابة دعوة للمؤمنين الى الاهتداء بأقوال هـــذا

النفر الصالح من رجال المسلمين حتى لا تبقى فى أسماعهم أو قلوبهم أى أثر لحديث المستعمرين أعداء الشعوب ٠

فسماحة الشيخ محمد قفطارة مفتى الديار السورية يصرح هو الآخر للصحفيين قائلا « لقد اقتنعت مرة أخرى وأنا هنا ، أن المسلمين فى الاتحاد السوفيتى يتمتعون بحرية كاملة فى عقيدتهم الدينية » ٠

ويرد محمد على ديفا أحد كبار رجال الاسلام فى الكاميرون على الاستعمار وأعوانه حين يتحدث فى حفل عشاء أقيم له وللوفد المرافق له فى مدينة أوفا بجمهورية بشكيريا الاشتراكية السوفيتية فيقول « لقد قيل لنا أن الدين محرم فى هذه البلاد ، وذلك ما ظهر أنه الكذب بعينه ٠ فحيثما ذهب المشتركون فى هذا المؤتمر فى الاتحاد السوفيتى — فى طشقند ، أو سمرقند أو بخارى أو أوفا — شاهدوا التقدم العظيم الذى حققه المسلمون فى كل ميادين الاقتصاد والثقافة ٠ لقد رأينا أعدادا غفيرة من المسلمين يقيمون الصلاة فى المساجد ٠ وقد صلينا معهم ٠ لقد رأينا مكتبات كبرى للعلوم الاسلامية ٠ لقد قوبلنا بحرارة أخوية ، الأمر الذى حرك كثيرا مشاعرنا » ٠

أما الحاج على الولكودى امام وخطيب الجامع الأكبر فى لاجوس عاصمة نيجيريا فيضيف نفس المعانى تقريبا قائلا « زعمت الدعاية الغربية أن المسلمين يعذبون فى الاتحاد السوفيتى ، وأنه لا حقوق للمؤمنين فيه ٠ ويعتقد الكثيرون ذلك ٠ ومع أن تلك هى زيارتى الأولى للاتحاد السوفيتى الا أنى استطعت أن أرى وأن أعرف حقائق كثيرة ٠ ان مساجدكم تعمل فى حرية ٠ وهناك علماء مشهورون ولا يضطهدهم أحد ٠ عندما أعود الى بلادى سوف أروى للجميع عن الحياة السعيدة التى يتمتع بها المسلمون فى بلادكم وعن الصلوات التى اشتركنا فيها » ٠

وبحكم وضع **الدكتور الحاج بدوى الدين محمود** كرئيس للجبهة الاسلامية فى سيلان لا يقتصر فى تعليقه على الجوانب الروحية لمسلمى فى حديث مع شيخ الاسلام على خوجة سليمان زادة يقول « انى كرئيس للجبهة الاشتراكية الاسلامية فى سيلان كنت بالطبع شديد الاهتمام لأن أرى حياة المؤمنين ٠ ولقد وجدت أدلة على التقدم العظيم الذى حققه الشعب السوفيتى منذ ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى سنة ١٩١٧ ٠ لقد انتعشت كثيرا الجمهوريات السوفيتية الاسلامية مثل أذربيجان

وأوزبكستان ٠ ويجب أن يؤكد أن هذه الجمهوريات قد انتقلت من تخلف القرون لتصبح مناطق متطورة صناعيا خلال حقبة قصيرة ما بين ٤٠ ، ٥٠ عاما ٠

لقد شاهدت بنفسى أنه لا ضغط على الدين فى الاتحـــاد السوفيتى ووجدت أن الحكومة السوفيتية لا تعوق كما لا تدفع الى الايمان بالاسلام ٠

وانى لأجد فى الاتحاد السوفيتى أكثر من أى بلد آخر أن مثاليـات الاسلام ومبادئه من المساواة والأخوة وعدم الاضطهاد على أساس الجنس أو القومية ، واحترام كل أنواع العمل ، الى آخره توضع فى التطبيق » ٠

ولا نظننا فى حاجة الى شهادات أخرى من ناحيـــة حرية العقيدة ، ومدى احترامها بل وتصدى النظام بحكم القوانين لأى فرد أو مجمـــوعة تعتدى على عقيدة أى فرد أو مجموعة أخرى ، أو تحاول أن تكسب لنفسها باسم دينها أى وضع خاص ٠ لقد شهد بذلك العشرات من المســـلمين الأفاضل عدا من ذكرناهم ٠ شهد بها امام جامبيا **الحاج محـمد لامين باه** الذى قال بعد جولة فى لنينجراد وموسكو وأوزبكستان أنه « عندما تلقينا الدعوة لزيارة الاتحاد السوفييتى حاول البعض أن يثنونا عن تلبيتها وأن يخيفونا قائلين بأن الاسلام قد تم محوه منذ وقت طويل وأنه لم يعد هناك مسلمون ٠ ولكن ذلك ما دفعنا أكثر الى الحضور لنرى أن الاتحاد السوفيتى ليس فقط دولة كبرى وغنيـــة ، بل انه دولة أفراد متســـاوون أحرار يستطيعون أن يدعوا لأى دين دون عوائق ، وأن حياة المسلمين فى هـــذا البلد تثير الاعجاب » وشهد بها كثيرون غيره ٠

* * *

ولم تقتصر شهادات المسلمين الضيوف على الاتحاد السوفيتى عـلى موضوع حرية العقيدة فحسب ، فهم يطلعون على كافة أحوال المسلمين فى شتى مناحى الحياة الروحية ٠ وتطرد تعليقاتهم واطراؤهم لما يشاهدون ٠

وقد حظيت **المكتبة الاسلامية فى طشقند** بالاعجـــاب الشديد من العديد من زوارها سواء بسبب المراجع الدينية أو المخطوطات الأثرية أو النشاط الدائب من المترددين عليها ٠

ولم يتردد **المرحوم لال بهادور شـــاسترى رئيس وزراء الهند** أن يكتب فى سجل المكتبة أنه يعتبره شرفا عظيما أن يزور ذلك الجامع الكبير (تلا شيخ) فى طشقند والمكتبة الملحقة به والمشهورة بمجموعتها الغنيـة من الكتب ٠ انها تحوى عديدا من الكتب المقدسة ولا يوجد ما يماثلها فى

مساجد الهند كلها ويهنىء القائمين على أمرها · لم يتردد ـ رحمه الله ـ فى كتابة هذا ، وأعقبه باهداء المكتبة عددا من الكتب القيمة ·

أما بعض الطلبة العرب الذين يدرسون فى موسكو وزاروا المكتبة فى أول مارس ١٩٦٩ فيكتبون فى دفتر زوارها « اننا لننظر باعجاب الى هذا المكان العظيم وتمتلىء قلوبنا بالفرح لزيارة هذا المسجد والمكتبة ، حيث تحفظ مجموعة قيمة من مخطوطات القرآن الكريم ··· ولقد أسعدنا أن نلتقى بهؤلاء المسئولين عن المحافظة على هذه الآثار الاسلامية والتراث الثقافى · أنها رغبتنا القلبية أن يظل الاسلام فى كل مكان رمزا للسلام ، وأن يستمر رافعا لواء الأخوة والمحبة والتفاهم بين شعوب العالم » ·

ولا يخفى **السيد أحمد برغش وزير الأوقاف فى المملكة المغربية** ورئيس وفد اسلامى مغربى اعجابه اذ يسجل « بسم الله الرحمن الرحيم · لقد سعدت بزيارة هذه المكتبة الغنية · وانى لأبارك جهود هؤلاء الذين يحافظون عليها بعناية وأدعو لله العظيم أن يستمر انتعاشها وألا يقتصر استعمالها على مسلمى هذه البقاع بل من مسلمى كل الأقطار » ·

أما مواطنه **محمود بن عبد الله** رئيس تحرير مجلة دعوة الحق وعضو نفس الوفد فيكتب بعد عودته الى بلاده يصف المكتبة قائلا « تقع المكتبة فى بقعة جميلة تحيطها أشجار كثيرة وخضرة يانعة وينبوع للرى يجرى حولها · أنها تستحم بالشمس من جميع جوانبها · وتكشف أرففها عن ذوق عال ، واحساس عميق بالجمال واهتمام من جانب المجلس الاسلامى لآسيا الوسطى وكازاخستان بالثقافة الانسانية والفكر والعلوم الاسلامية » · ولقد أصدرت المكتبة أخيرا مجلة شهرية تنبىء عن حياة المسلمين فى الاتحاد السوفيتى كما أصدرت طبعة فخمة من القرآن ·

ان أمين المكتبة أستاذ شاب يثير الاعجاب هو أبو تراب بن يونس أحد خريجى جامعة القيروان فى مراكش ·

وقد حظيت المدرسة بزيارة العديدين من الزوار المسلمين ، شاهدوا المبنى وكيف أعيد الى سيرته الأولى بعد أن كادت تعدو عليه عاديات الزمان تحت الحكم القيصرى وقرأوا على جدران « الحجرات » المخصصة للتلاميذ أسماء سلف صالح ممن سبق لهم الدراسة بها مثل رجل الشريعة القاضى عسكر الذى أصبح فيما بعد الزعيم الروحى لأحد فروع الطائفة النقشبندية والمحدث والمفسر الشيخ ايشان مالك والذى أسس فيما بعد

المجلس الاسلامى لآسيا الوسطى وكان معلما للمفتى السابق ايشان باباخان بن عبد المجيد خان ، كما قضى شبابه دارسا بين حجراتها الشاعر والمفكر مؤسس الأدب السوفيتى الطاجيكى صدر الدين عينى ٠

لقد استمع الزوار الى الدروس التى تلقى بها ، وفحصوا مناهج الدراسة ووسائلها ، واختبروا طلبتها ، وأثارت لدى العديدين منهم مناقشات بينهم وبين أساتذتها ٠

ووجدت بعثة مسلمى فولتا العليا التى كان يرأسها **الحاج عبد السلام كيمثروى** أن بأسلوب المدرسة ووسائلها فى تعليم أصول الدين الكثير الذى يمكن أن ينقلوه الى بلادهم كخبرة متميزة ٠

أما **السيد محمد أمين دوغان** صاحب امتياز ورئيس تحرير صحيفة الشعب البيروتية الذى زار الاتحاد السوفيتى ضمن وفد من الشخصيات الاسلامية فى لبنان برئاسة المفتى **الأكبر الشيخ حسن خالد** فقد أصدر كتابا أسماه « الرحلة الأولى» ضمنه قوله « قبل جولة وفدنا كان الناس يصدقون الشائعات التى تزعم بأن الاتحاد السوفيتى يحظر على المسلمين ممارسة شعائرهم الدينية ويدرس حقوقهم ويضطهدهم ويحرمهم من حق الكلام ويدمر آثارهم التاريخية وغير ذلك ٠

واستطاع الأمبرياليون أن يروجوا هذا الشائعات ، ما دام الوفد الاسلامى لم يزر الاتحاد السوفيتى ٠ ولكن تصريحات الوفد بعد رجوعه الى الوطن قد نسفت الى الأبد هذه الدعاية الكاذبة ٠٠ وهتك الستار الذى حاكه الأمبرياليون بهدف اخفاء الحقيقة عن الشعب » ٠

ولكنه فى شأن المدرسة فبعد أن كتب يصف الزيارة والحديث مع المدرسين والطلبة مضى يقول « ٠٠ ودخلنا الى الصف حيث كان يجرى تدريس القرآن ٠ وكان جميع الطلبة من المقرئين الحفاظ العارفين لنص القرآن عن ظهر الغيب ورجا سماحة المفتى الأكبر حسن خالد أحد الطلبة أن يتلو أجزاء من سورة الكهف ٠ وماذا تظن ؟ لقد تلى جزءا طويلا من الآيات البينات بلسان عربى ونطق سليم وصوت رخيم » ٠

وتتنوع الشهادات من أفاضل المسلمين حول العديد من ظواهر حياة المسلمين ٠

فكتب **الدكتور زكي علي** من سويسرا الى المفتى ضياء الدين خان بعد ان تلقى نسخة من ألبوم « الآثار الاسلامية التاريخية فى الاتحاد السوفيتى « يقول » انى شاكر لك هذه الهدية التاريخية العلمية الدينية ، التى توضح تقدم بلادكم فى العلوم والثقافة ٠ وانى أعتبر هذا الألبوم كمثال عن الارث الاسلامى المدهش لآسيا الوسطى » ٠

أما **محمد بن العربى السعدونى** وزير الأوقاف فى جمهورية الجزائر الديمقراطية والشعبية فيقول فى مؤتمر صحفى فى طقشند فى ١٤ يوليو ١٩٦٩ « ان كل ما شدهدناه فى سمرقند من الآثار المعمارية المدهشة وقبر الامام البخارى يقنعنا أن البلاد التى توجد فيها هذه الآثار ويحافظ عليها ، تعامل الاسلام نفسه بالاحترام »

ويقول **الدكتور واثق الكسار** أحد الشخصيات اللبنانية المعروفة أن « اللقاء الحار الذى قوبلنا به جعلنا ننسى أننا لسنا فى بلادنا ٠ انا نشعر هنا بأننا بين أخوة فى الدم ٠ ان ما رأيناه بأعيننا وأحاديثنا مع القادة الدينيين أوضح لنا أن المؤمنين فى الاتحاد السوفيتى يمارسون عقيدتهم بكل حرية »

أما **الدكتور عبد المنعم** من وزارة البحث العلمي بجمهورية مصر العربية وقد حضر عيد الأضحى وصلاة العيد مع المسلمين فقد كتب فى دفتر زيارات المجلس الاسلامى لآسيا الوسطى أنه « فى اليوم الأول لعيد الأضحى قد شاركت بفضل الله فى الصلاة مع اخوانى فى العقيدة ٠ وعندما رأيت أعداد المسلمين متجه لتؤدى الفريضة وقد تراصوا فى ايمان عميق أمام المسجد طفرت الى عينى دموع الفرح ٠

ولقد قضيت وقتا سعيدا مع سيادة المفتى ، وشاركت فى زيارة منازل ذوى الأحزان ورأيت أن الاسلام ما زال يعيش وينتعش ٠ ويعيش الاسلام لأن هناك أناس مخلصون لمبادئه وتعاليمه » ٠

وقد تمضى بنا الشهادات الى آفاق أخرى ٠ وقد يتكرر من أصحابها ذكر ما يفضح الدعايات الاستعمارية ويرد كيد الكائدين الى نحورهم ٠ ولكننا نعتقد أن ما ذكرنا فيه الكفاية وأكثر أن يجعل كل مؤمن غيور على دينه يطمئن غاية الاطمئنان على أحوال آخوانه فى العقيدة وحريتهم ، وعلى أن الاسلام لا يمكن الا أن يكون بخير طالما كان هناك أناس يؤمنون به

ويدعون له ، وطالما كان النظام الاجتماعي يحترم حرية العقيدة لدى أفراده، ويسوى بين مختلف العقائد ، لا يفضل واحدة على الأخرى ، وطالما لم تكن هناك طبقات من مصلحتها أن تضطهد هذا وتقرب ذاك ، ومن مصلحتها أن تستغل الدين — أي دين — لتحقيق بقاء امتيازاتها الاجتماعية والاقتصادية على حساب الجماهير الواسعة المستغلة اقتصاديا والمقهورة سياسيا • تلك الأوضاع التى عبر عنها **الأمير كانو بايبيرا** رئيس بعثة مسلمى نيجيريا اذ يقول « لقد كانت رحلتنا عظيمة الفائدة • لقد رأينا الكثير المثير والهام ، ولكن ما كان ذا انطباع كبير لدينا هو الصداقة والتعاون بين المسلمين وغير المسلمين وبين القوميات المختلفة • اننا يجب أن نتعلم منكم كيف يمكن أن نقيم مثل هذا التعاون » •

وقد يكون مفيدا فى هذا الصدد أن نورد هنا رد بعض الحجاج من طاجيكستان حين سألهم مؤمنون آخرون في مناسبة حج بيت الله الحرام عن الأسباب التى تجعلهم يحبون الاشتراكية ويخلصون لها • لقد قالوا — واخلصوا القول لأخوانهم — أن :

« ثورة أكتوبر الاشتراكية قد مثلت نقطة تحول فى مستقبل مسلمى روسيا • لقد تحرروا من الاضطهاد الديني والاجتماعى والقومى واستطاعوا لأول مرة أن ينعموا بالحقوق المتساوية مع المواطنين الآخرين •• » •

ويمضى متحدثوهم ليتساءلوا « كيف كانت طاجيكستان منذ خمسة عقود مضت ؟ لقد كانت متأخرة ، مهينة يعمها الفقر • وكان القوم على وشك أن ينقرضوا بعد ما تحملوه من قهر القيصرية وأمراء الاقطاع المحليين • وكان الاقتصاد فى حالة يؤسف لها » •

« لقد ساعدت ثورة أكتوبر الاشتراكية على أن تخرج الجماهير من الظلام والعبودية وأن ينطلقوا على طريق البناء الاشتراكي •• وان يتحولوا مباشرة من الاقطاعية المتخلفة الى قوة صناعية زراعية » •

فبينما لم يكن هناك فى ١٩١٣ سوى عدد من المؤسسات الصغيرة لطحن الحبوب ، يوجد اليوم ما يزيد على مائة فرع من فروع الصناعة • لقد زاد الانتاج الصناعى ٦٠ مرة • ان البلاد التى لم تكن بالفعل تعرف الكهرباء تنتج اليوم أكثر من ٢ مليون كيلوات ساعة سنويا من الطاقة الكهربائية • وباستكمال مشروع محطة قوى نوريك سيرتفع الرقم الى

١٢ مليون • لقد دخلت طاجيكستان الى السوق العالمية مصدرة عديدا من المنتجات الصناعية لأكثر من ٥٠ بلدا فى أوربا وآسيا وأفريقيا لم تكن فيما مضى تسمع باسم البلاد » •

« لقد تم تحول عظيم مماثل فى الزراعة ، زاد انتاج القطن ٢٠ ضعفا حيث وصل الى ٢ر٦ طنا للهكتار بينما هو يقف عند ٥٤ر٠ طنا فى البرازيل ، ٤٢ر٠ طنا فى الهند » •

« لم يكن هناك قبل الثورة أكثر من ٦ أفراد فى كل ألف يستطيعون القراءة والكتابة •• أما اليوم فلم يقض على الأمية فحسب بل هناك سبعة من الجامعات والكليات المتخصصة ، ٢٢ مدرسة ثانوية متخصصة ، ٣٠٠٠ مدرسة للتعليم العام » •

« وتعمل الأكاديمية القومية للعلوم منذ ١٧ عاما لتنسق بين البحوث العلمية لمراكز للبحوث التى تحوى ٤٠٠٠ باحث من بينهم ٩٠٠ يحملون شهادات الدكتوراه والماجستير » •

خاتمـــــة

لعل أفضل ما نختم به هذا الحديث الذى ما أردنا به إلا تدارس أحوال المسلمين فى بلاد كثر عنها اللغط . وتعقيباً على ما دأبت الدوائر الاستعمارية من ترديده من أن نستنير بقوله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ .

طبع بمطابع
دار النشر للجامعات المصرية
٤١ شارع شريف - القاهرة

